الفصل الأول

الهجرات الرئيسية إلى الهلال الخصيب

1. تمهيد:

ينحصر تاريخ فلسطين القديم في أقدم فترة عاشتها أرض فلسطين في مسيرتها الحضارية، وهذه الفترة تتميز بأهم ظاهرة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، هى هجرة جماعات من سكان جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب [1] على هيأة موجات متتالية، وقد لعبت هذه الهجرات دورا رئيسيا في تغيير مجرى الكيان الحضارى وتطوره في العالم القديم.

تبدأ هذه الفترة حسب تقدير العلماء، في حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد، أى قبل حوالى خمسة آلاف عام، وتنتهى بظهور موسى وقومه على مسرح الأحداث بعد خروجهم من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبذلك يكون هذا الدور من تاريخ فلسطين القديم قد استغرق ما يقارب ألفى عام.

ويرى الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن أسلاف هذه الجماعات كانوا يتمتعون في الأصل بحضارة قديمة في الطرف الجنوبى من شبه جزيرة العرب، وقد كانت بلادهم في تلك الأزمان عامرة بأنهارها الدائمة الجرى وبأمطارها الغزيرة الدائمة الهطلان، إلا أنها تعرضت إلى تغيرات مناخية في نهاية العصر الجليدى الأخير في حدود سنة 20.000 قبل الميلاد [2]، الأمر الذي أدى إلى انحباس الأمطار واندثار الأنهار، فأخذ الجفاف ينتشر منذ ذلك الحين في النطاق الصحراوى الحالى، مما اضطر الإنسان والحيوان إلى الهجرة إلى أماكن ذات موارد مائية دائمة، فكان أن توجه هؤلاء السكان إلى شمال الجزيرة ومنها أخذوا يتوزعون على أطراف الهلال الخصيب المجاورة للجزيرة في موجات

---

(1) يطلق عادة مصطلح " الهلال الخصيب " على القسم الخصب الهلالى الشكل من جزيرة العرب الذي يقع على أطرافها الشرقية والشمالية والغربية، ويشمل سورية ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن والعراق، وبعضهم يدخل الجزء الشمالى من وادى النيل ضمن الهلال، وأول من قال بهذا المصطلح هو الأستاذ بريستد وسماه بالإنكليزية (The Fertile Crescent).

(2) يعتقد العلماء أن الشرق الأوسط يجتاز اليوم فترة جفاف وحرارة عالية ويذهبون إلى أنها بدأت منذ أكثر من ستة آلاف عام ومازال الجفاف فيها بازدياد مطرد (راجع الدكتور أحمد سوسة)، " الرى والحضارة في وادى الرافدين "، ج1، ص 181 - 183.

متعاقبة، فمنهم من توجه شرقا نحو بلاد الرافدين، وبصورة خاصة نحو نهر الفرات، ومنهم من استقر في فلسطين وفي سورية وفي لبنان، وهناك من توجه غربا نحو طور سيناء وأطراف وادي النيل الأسفل الشرقي.

ومما ساعد على هذه الهجرات أن حدود العراق الغربية وحدود مصر الشمالية الشرقية وحدود الأردن، مفتوحة للصحراء، فكان في مقدور القبائل العربية المنتشرة في شبه جزيرة العرب أن تتوغل فيها دون أن يصادفها حاجز جغرافي يصدها. وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بوجه خاص عندما تكون الحكومات المسيطرة على البلاد الواقعة على أطراف الصحراء ضعيفة بحيث تستطيع هذه القبائل أن تستفيد من هذه الظروف للتوغل إلى الداخل، وقد استغلت هذه القبائل نفوذها في الصحراء مما اضطر التجار وأصحاب القوافل أن يلجؤوا إلى استرضائها ودفع مبالغ كبيرة لها لقاء حمايتها لهم.

ويحدد بعض الباحثين بداية الهجرات السامية إلى الهلال الخصيب بالألف الرابعة قبل الميلاد وربما قبل ذلك، على رأى البعض الآخر، ولكن معلوماتنا المستقاة من التنقيبات الأثارية تحدد بداية تاريخ الهجرات المذكور بالألف الثالثة قبل الميلاد.

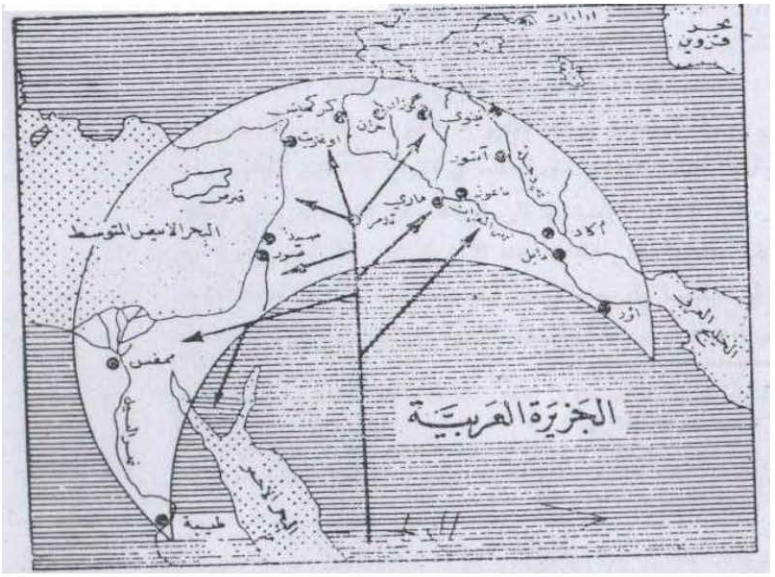

المرتسم رقم (1)

الهجرات السامية العربية من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب

وسنبحث فيما يلى في كل من هذه الهجرات الرئيسية وفيما تركته من تراث حضارى عريق لما لها من صلة مباشرة بموضوع بحثنا وارتباطها به.

ومما يذكر أن هذه الجماعات لم تستقر في مستوطناتها الجديدة نتيجة حرب أو غزو، بل كانت قبل أن تحل فيها تنتقل بين أرجاء البادية الفسيحة في أرض مكشوفة مفتوحة للجميع (أرض الله الواسعة) فتقصد الماء أينما وجد، إذا كانت الأماكن الصالحة للسكنى في هذه البقاع متوفرة للجميع في البداية.

وكان كل المهاجرين من عنصر وأصل واحد وقومية واحدة (القومية السامية العربية) تربطهم وشائج اللغة والتراث الصحراوى الذي ينتمون إليه جميعا، فلا يزاحمهم أو يعترضهم عنصر غريب لأن العناصر غير السامية لم تكن قد هاجرت إلى هذه المنطقة بعد. وكانت مستوطناتهم خاضعة لحكم قبلى عشائرى يتولاه رؤساؤهم وشيوخهم، إذ كانت كدويلات المدن لها أحكامها الخاصة بها، وهذه مستمدة من الأعراف والتقاليد المتوارثة من المجتمع البدوى، فقد كان يقوم شيخ القبيلة ومجلس مشايخها في ممارسة السلطة. وكان اتصال المهاجرين مستمرا بينهم وبين أبناء عمومتهم في وطنهم الأصلى حيث كانت الجمال تطوى البوادى دون انقطاع مسيطرة على طرق المواصلات وهى آنئذ الواسطة الوحيدة التي كانت تربط المستوطنات الجديدة بالوطن الأم عبر البوادى والصحارى، ومن المعتقد أن الهجرة كانت تتم بصورة تدريجية على النحو الذي نشاهده اليوم في هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية إلى وادى الرافدين.

ومن أمثلة الهجرات الحديثة: هجرة قبائل شمر من ديارها في الجزيرة (أرض نجد منطقة حائل) فقد نزحت جماعات من هذه القبائل إلى العراق على موجتين متتاليتين، الأولى قبل خمسمائة سنة ومن بقاياها جماعة " الغرير " التي صارت تمارس الزراعة في منطقة المحمودية، وجماعة " زوبع " في الفلوجة وغيرها من العشائر المستقرة التي تسكن أرض السواد، وأما الموجة الثانية فهى أحدث وقد دخلت العراق قبل ثلاثمائة سنة تقريبا ومن بقاياها عشائر " شمر الجربا " التي استقرت في الأراضى الممتدة ما بين نهرى دجلة والفرات في شمالى الخط الواصل ما بين بغداد والفلوجة، وقد استمرت أفخاذ شمر في الهجرة حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى. والمعلوم أن عشائرشمر منتشرة اليوم في المملكة العربية السعودية وفى العراق وسورية، وعلى الرغم من هجرة هذه

القبائل لوطنها الأصلي في جزيرة العرب فقد بقيت مرتبطة بولائها لزعمائها في الوطن الأم.

ومن قبائل العرب الكبرى التي تصور لنا مثلا حيا للهجرات القبائلية من الجزيرة العربية وارتباطها بوادى الرافدين قبيلة " عنزة ". وأصل وطن هذه القبيلة الحجاز في أنحاء المدينة المنورة، ويرجع تاريخها إلى العهد الجاهلى حيث أورد ذكرها كل من ابن خلدون وابن سعيد. وبيت آل سعود ملوك نجد والحجاز اليوم منهاو كذلك آل صباح وآل خليفة في الكويت والبحرين، إن مجيء جماعات من هذه القبيلة إلى العراق يصادف زمن مجئ " شمر الجربا " وتقسم إلى فرعين رئيسيين الأول ومركزه الرطبة ويدعى بقبائل " العمارات " والفرع الثانى ويسمى " بالدهامشة " (الظفير) ومركزه نقرة السلمان [1].

وقد ذلك يقول المرحوم العقاد: " إن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر في الأزمنة التاريخية القريبة والبعيدة وأقربها ما حدث بعد الإسلام من زحف العرب على العراق وزحفهم على الشام في وقت واحد في عهد الخليفة الصديق. والجزيرة العربية في عزلتها المعروفة أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء على سكانها فيهجروها إلى أودية الأنهار القديمة، وليس لدينا ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلا على التاريخ القديم " [2].

وقد بقى النزاع بين أهل " المدر " وأهل " الوبر " أى بين البداوة والاستيطان الثابت المستقر، مستمرا طيلة هذه الأدوار التاريخية، ولكن هذا النزاع لم يقض على بداوة الرعى التي سارت جنبا إلى جنب مع الزراعة المستقرة بعد أن انفصل مجالهما " فسكن المزارعون حول ضفاف الأنهار وزرعوا الأرض، بينما تكيف الرعاة مع طبيعة المرعى وطبيعة الحيوان، واتخذوا مسارحهم في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية، وكان البدو في الفترات التاريخية التي عاشوها يملكون من أسباب القوة ما يفتقده المزارع، فطبيعة حياتهم القاسية دفعتهم إلى أن يتصفوا بالشجاعة دفاعا عن أنفسهم في بيئتهم الموحشة طبيعيا والمخيفة بشريا، وهكذا فقد نشأوا محاربين، وكانوا

(1) الدكتور نورى البرازى: " البداوة والاستقرار في العراق "، معهد البحوث والدراسات العربية، 1969، ص 126 - 131؛ مكى جميل: " البدو والقبائل الرحالة في العراق "، 1956.

(2) العقاد: " أثر العرب في الحضارة الأوربية " القاهرة، 1960، ص10.

يملكون الوسائل المادية للقتال، ولا غرو فهم أهل الخيل والإبل يطلبون أعداءهم على ظهورها، ويفوقونهم بها، فالبدو كما نعلم من التاريخ كانوا متفوقين حربيا لفترة طويلة على أهل الحضر الذين عاشوا فترة من الزمن في حمايتهم يدفعون لهم (الخوة) أى: (الإتاوة) [1].

2 ـ هجرة الكنعانيين إلى فلسطين:

ومن أقدم الهجرات التي قام بها أهل جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب هجرة الجماعات التي توجهت إلى أرض فلسطين في النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد حسب أوثق التقديرات، ويرجع البعض سكنى الكنعانيين أرض فلسطين إلى ما قبل ذلك بزمن بعيد، إذ توصل الأثاريون الذين أجروا تنقيبات في بعض المدن التي تحمل أسماء كنعانية أصيلة مثل " أريحا " و " بيت شان " و " مجدّو " و " جازر " إلى إرجاع تاريخ هذه المدن إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، وقد أرجع الباحثون تاريخ بلدة أريحا إلى ما قبل سبعة آلاف سنة وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال باقية حتى الآن [2]، هذا وقد توصل الباحثون أيضا إلى أن أقدم المعابد الكنعانية تقع في " أريحا " وفى " مجدّو "، وهى ترجع إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد [3]، وقد عثر في حفائر " تليلات غسول " الواقعة شمال شرقى البحر الميت في سنة 1929 وما بعدها على آثار أقدم مدينة كنعانية في فلسطين، أى أقدم من أريحا وجازر، كان لها حضارة راقية، وقد خربت في أوائل العهد الحجرى المعدنى أو البرونزى (5000 - 3000 ق.م) نتيجة حريق حولها إلى رماد [4]، ويقول الأستاذ أولبرايت معلقا على هذا الموضوع: " أنه لدينا من البراهين والأدلة على أن الكنعانيين أصحاب اللغة السامية الغربية استقروا في فلسطين في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد حيث عثر على أسماء مدن تحمل أسماء كنعانية ترجع إلى الأسرة الخامسة المصرية (2956 ق.م) كما وردت كلمات كنعانية في المدونات المصرية من عصر

(1) الدكتور نورى البرازى: " البداوة والاستقرار في العراق "، ص 108 - 109.
(2) Keller, "The Bible as History", 1957, P. 158.
(3) Hitto, "History of Syria", London, 1951, P. 120.
(4) Riccioti, "History d'Israel", vol. I, PP. 70 - 104.

الأهرام (القرن الثامن والعشرون قبل الميلاد) [1]. وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نجزم واثقين بأن الكنعانيين كانوا مستقرين في فلسطين قبل خمسة آلاف سنة.

أ ـ كنعان وأصل تسميتها:

لقد ورد ذكر كنعان في رسائل العمارنة التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسم (Knakhni)، وكانت هذه التسمية تطلق حينذاك على القسم الجنوبى من بلاد الشرق المشتملة على أرض فلسطين والتى كان قد استولى عليها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أما القسم الشمالى فكان يسمى " أمورو " ويشمل منطقتى لبنان وشرقى الأردن [2].

وقد ورد في الكتابات القديمة ذكر مدينة بابلية باسم " كنعان " (Kan - nan) وسمى ساكنها " كنعانى " (Kanunai) وهو نفس اسم كنعان الفلسطينى، ويعتقد أن هذه التسمية جاءت عن طريق انتقال مهاجرين من كنعان إلى بابل فسميت مدينتهم على اسم بلدهم التي جاءوا منها طبقا للعادة التي اتبعها المهاجرون في مختلف البلدان عبر التاريخ [3]، وذلك يدل على أن لفظ (كنعان) قديم جدا يرجع إلى ما قبل عهد التوراة بعدة قرون، كما وتجدر الإشارة إلى أن تسمية كنعان مازالت حتى هذا اليوم تطلق على موضع في لواء ديالى من العراق. وكذلك أيضا توجد بلدة في الولايات المتحدة الأمريكية، مقاطعة نيوهمشاير تدعى بكنعان وغير معلوم كيف انتقل هذا الاسم إلى أمريكا، والأرجح أنه انتقل عن طريق مهاجرين من فلسطين.

وكنعان هى نفس التسمية التي وردت في التوراة [4]، وذلك نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح [5]. " وقد ولد صيدون بكره وحثا واليبوسى والأمورى،

(1) Albright, "Archaeology & the Religion of Israel", 1942, P. 68.

(2) Rogers, "Cuneifirm Parallels to the Old Testament", 1942, P. 260.

(3) G.A. Smith, "The Historical Geography of the Holy - Land", 1931, P. 296.

(4) وردت كلمة كنعان خمسة وثمانين مرة في الكتاب المقدس، ثلاثة وثمانون مرة في العهد القديم ومرتين في العهد الجديد موزعة كما يلى:
تكوين (12 مرة)، خروج (3 مرات)، لاويين أو أخبار (مرتين)، عدد (10 مرات)، يشوع (6 مرات)، قضاة (7 مرات)، أخبار (3 مرات)، مزامير (3 مرات)، أشعيا (مرتين)، حزقيال (3 مرات)، صفنيا (مرتين)، أعمال الرسل (مرتين).

(5) تك، 9: 18.

والجرجاشى والحوى والعرقى والسينى والأروادى والصمارى والحماتى "، وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعانى، وكانت تخوم الكنعانى من صيدون حينما تجئ نحو جرار إلى غزة وحينما تجئ نحو سدوم وعمرة وأدة وصبوييم إلى لاشع " [1].
وبذلك تكون بلاد كنعان قد شملت حسب وصف التوراة الرقعة الجغرافية الواقعة بين شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقى من أوغاريث إلى غزة وبين الصحراء السورية ومن سهول أدنه من جنوب آسيا الصغرى إلى صحراء النقب جنوبى فلسطين. وفى رأى بعض الباحثين المحدثين أن كنعان كلمة حورية تعنى الصبغ القرمزى، وهو الصبغ الذي كان الكنعانيون يصنعونه ويتاجرون به [2].
إلا أن هذه التسمية غير مقبولة لأنها هكذا وردت في الكتابات القديمة وبالاسم الذي تقدم ذكره. وكان اسم بلاد كنعان يطلق في أول الأمر على الساحل والقسم الغربى من فلسطين، ولكنه عم استعماله بعدئذ بحيث صار يشمل قسما كبيرا من سورية وأطلق على كل فلسطين أيضا، وتعتبر بلدة " شكيم " (نابلس) العاصمة الطبيعية لبلاد كنعان لموقعها في وسط فلسطين، كما تعتبر " حاصور " العاصمة الشمالية في منطقة وقد لعبت كلتاهما دورا مهما في تاريخ فلسطين القديم.

(1) (تك، 10: 15 - 19)، راجع أيضا (1 أخ 12: 13 - 16).
(2) Hitti, "History of Syria", P. 97.

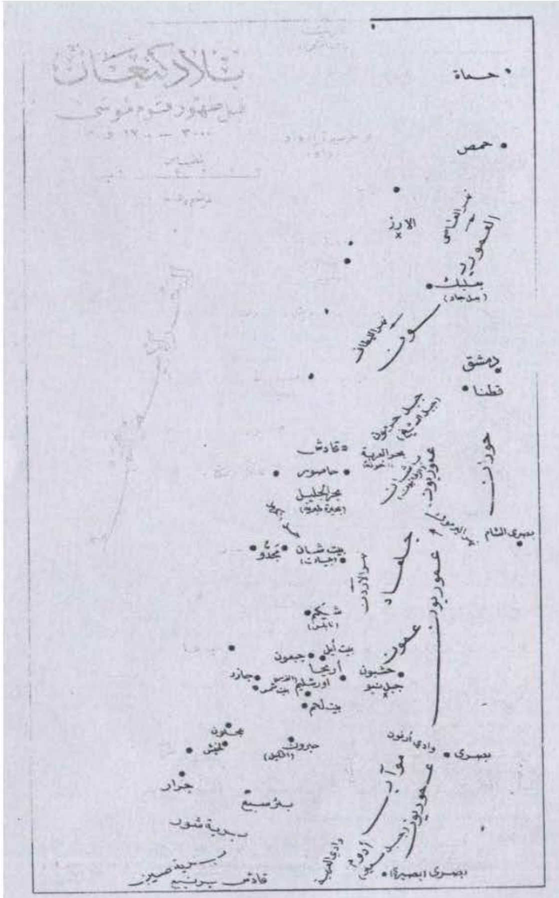

بلاد كنعان قبل ظهور قوم موسى

ويؤيد الدكتور كلود شافر بالاستناد إلى لوحات تل العمارنة وإلى وثائق رأس شمرا المكتشفة حديثا وإلى المكتشفات الأثارية التي نشرت مؤخرا عن حفريات طرسوس في قيليقيا وأريحا... الخ ما ذهبت إليه التوراة في تحديد حدود كنعان بقوله:

" ثبت لنا أن بلاد الكنعانيين بين شواطئ المتوسط الشرقية وصحراء سورية اتسعت في الجنوب، من فلسطين الجنوبية إلى أوغاريث (رأس الشمرة قرب اللاذقية) وفى الشمال استعمر الكنعانيون سهول دانونا (أدنة) الخصبة واستثمروها منذ النصف الأول للألف الثانية قبل الميلاد وكانوا يؤسسون على السواحل نقاط ارتكاز لتجارتهم، وقد بلغ من قوة واستمرار الكنعانيين في هذه الأرجاء أن ملك صور (1400 - 1350 ق.م) في رسالة منه إلى فرعون المقيم حينئذ في العمارنة،

ذكر دانونا ضمن بلاد كنعان " [1]. ويلاحظ أن الرعاة البدو من صحراء سورية لا يزالون حتى هذا اليوم يصلون في تنقلاتهم إلى سهول أدنة من أجل الحصول على مراعى في منطقة آسيا الصغرى.

ب ـ الحضارة الكنعانية ودورها الطليعي في التقدم الحضاري:

ومما لا شك فيه أن الكنعانيين هى أقدم الأقوام الذين استقروا في أرض فلسطين وإليهم يعود تأسيس حضارة فلسطين القديمة، والأرجح أن لغتهم كانت في الأصل اللغة التي اعتبرت أقرب لغة إلى أم اللغات السامية، أى اللغة العربية القديمة التي كان يتكلم بها أهل الجزيرة قبل هجرتهم إلى الهلال الخصيب، ثم تفرعت منها مختلف اللهجات المتأخرة، ومن هذه اللهجات اللغة الكنعانية التي انفردت فيما بعد بخصائص خاصة بها والتى صارت تعرف كإحدى اللهجات في مجموعة دعين بكتلة اللغات الغربية ومنها الموآبية والفينقية والعبرانية لتمييزها عن اللهجات الأخرى في إطار المجموعات السامية.

وترجع الحضارة الكنعانية إلى عصور واغلة في القدم، فمنذ العصر الحجرى الحديث أو العصر النيوليثى (7000 - 5000 ق.م) بدأت هذه الحضارة تنمو وتتقدم في مجال التمدن فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس الطرى، ثم اهتدوا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في إنتاج البرونز، وبذلك كانوا السبّاقين في استخدام صناعة التعدين مما أعطى تلك الشعوب البدائية أدوات وأسلحة فتاكة، وقد أصبح استعمال البرونز شائعا في المدن الكنعانية منذ أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد [2]، وبدأت تستعمل الحديد منذ أواخر الألف الثانية قبل الميلاد، ومن المحتمل أن الكنعانيين أخذوا بصناعة الحديد من الفلسطينيين،أو أنهم أخذوا بها من الأقوام المجارة لهم مثل الحيثيين [3]، ومن الجائز أيضا أن يكونوا قد أخذوا بها من العرب الذين كانت لهم مناجم مهمة أيضا، أو أنهم اكتشفوا معدن الحديد من داخل

(1) الشيخ نسيب الخازن، " من الساميين إلى العرب "، ص 41.

(2) Lods, "Israel", P. 59 ; A. Bertholet, "Histore de la Civilisation d'Israel". (French translation), 1929, P. 70.

(3) (إر، 15: 12، 28: 14)، (انظر ما يلى حول هجرة الفلسطينيين والحيثيين).

بلادهم [1]، وقد ثبت وجود هذا المعدن في لبنان وفى الأردن [2].

ويتجلى لنا مدى تقدم صناعة المعادن في بلاد كنعان بين التجلى فيما أورده الفراعنة المصريون في وصف الغنائم التي أخذوها من المدن الكنعانية في فتوحاتهم للشرق، فنجد بين المصنوعات المعدنية الثمينة التي وردت في القوائم التي سجلها تحوتمس الثالث، أحد فراعنة السلاسة الثامنة عشر (1504 - 1450 ق.م) عربات مطعمة بالذهب وأوتاد لتثبيت الخيم مطعمة بالفضة، وسرائر من العاج ومضاجع مطلية بالذهب وأنواع من الكؤوس والآنية والسيوف وتماثيل من الذهب ومن خشب الأبنوس، وفى القائمة علاوة على ما تقدم 207.000 كيس من الحنطة جلبها تحوتمس من كنعان [3].

وكانت زراعة الكروم والتين من أهم المزروعات القديمة في كنعان، وتوجد بينات على أن هذه الزراعة كانت مزدهرة في عهد بيبى الأول (حوالى 2500 ق.م) إذ وجدت هناك معاصر للزيت والعنب من تلك العصور مصنوعة بمنتهى الدقة والإتقان، وتشير مدونات تحوتمس الثالث إلى خصوبة أرض كنعان مؤكدة أن النبيذ عند الكنعانيين كان موجودا بكثرة تفوق وجود الماء [4].

وقد تقدم لدى الكنعانيين، عدا فن الصناعة وصناعة العاج، صناعة الزجاج والنسيج الصوفى والقطنى، وكذلك صناعة الأصباغ ولاسيما القرمز والأرجوان الذين اقترنا باسمهم.

وقد اشتهر الكنعانيون بما ابتكروه من وسائل الدفاع عن مدنهم، فقد كرسوا طاقاتهم وجهودهم في سبيل إتقان الأساليب الحربية التي لازمتهم طيلة حياتهم بسبب النزاعات والخصومات المستمرة بين دويلات المدن الكنعانية المنتشرة في أرجاء البلاد وبسبب الغزوات التي كان يشنها الفاتحون من خارج البلاد، ومن الوسائل التي برعوا فيها إنشاء القلاع وما يرافقها من تحصينات دفاعية، ولحاجتهم إلى الماء في فترات الحصار فقد قاموا بأعمال هندسية ضخمة لإيصال الماء إلى داخل حصونهم، ومن بقايا هذه المشاريع التي ما تزال آثارها ماثلة للعيان، النفق الطويل الذي حفروه في بلدة جازر الكنعانية الواقعة على بعد حوالى

(1) (تث، 8: 9).

(2) Lods, "Israel", PP. 32, 59.

(3) Lods, "Israel", P. 60.

(4) Vincent, "Canaan d'apres I'Explotation Recente", PP. 77 - 80.

35 كيلو مترا إلى الشمال الغربى من أورشليم للوصول إلى ينبوع ماء يقع تحت مستوى الأرض على عمق حوالى مائة قدم ينزل إليه بواسطة مدرج مكون من 80 درجة يبلغ طول هذا النفق 219 قدما، ويرى الأثاريون أن الكنعانيين كانوا قد اتخذوا من هذا الموقع حصنا منيعا حملهم على حفر هذا النفق لتموينه بالماء عند الحصار، يرجع بناؤه إلى حوالى 3000 ق. م.

وقد أقام الكنعانيون مشروعا آخر من هذا القبيل في أورشليم وذلك لإيصال الماء إلى الحصن الذي كان قد شيده اليبوسيون، سكان أورشليم الأصليون، على الهضبة الشرقية من مدينة القدس الحالية، واليبوسيون هم فرع من القبائل الكنعانية التي كانت قد نزحت من جزيرة العرب، واستقرت في فلسطين منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد.

التصوير رقم (1)
المدخل المدرج إلى نفص جازر الكنعانى
لذلك سميت المدينة باسمهم (يبوس) وقد أصبحت هذه التسمية

مرادفة لأورشليم، وقد ورد ذكرها في التوراة على هذا الشكل، فقيل " يبوس هي أورشليم " و " أورشليم هي اليبوسيين " [1]. وكان حصن يبوس يعرف بـ " حصن صهيون " أيضا، كما كان يعرف الجبل الذي أقيم عليه الحصن بالأكمة أو " أوفل " [2]، وأحيانا " جبل صهيون " [3] ولتموين الحصن بالمياه حفر اليبوسيون نفقا داخل الجبل وجروا فيه الماء من عين غزيرة تقع شرقي الحصن على حافة " وادي قدرون " (وادي ستي مريم الحالي) إلى الحصن، ويمتد هذا النفق مسافة 17 ياردة إلى الغرب بين العين والحصن، وقد نقر الحجر وصنع فيه شبه خزان في نهاية النفق ومنه حفر منفذ في الحجر بحجم (6 × 4 أقدام) يصعد إلى سطح الهضبة داخل الحصن بعمق تسع ياردات، وكان الماء يستقى من سطح الحصن بالسطل والحبل من البئر التي فيها الخزان (انظر المرتسم رقم 3). وقد كانت هذه العين تسمى قديما باسم " عين جيحون " كما ورد اسمها في التوراة [4]، وما تزال هذه العين تمون القدس بالماء وتعرف اليوم بـ " نبع العذراء " (انظر التصوير رقم 2). وقد ورد ذكر هذا النفق في التوراة في أخبار الملك داود حيث سمي بالقناة [5]، والظاهر أن الملك داود اكتشف مدخله السري من خارج السور فأدخل رجاله فيه حتى وصلوا إلى منتهاه في داخل السور ومنه صعدوا إلى سطح الحصن وباغتوا اليبوسيين داخل الحصن واحتلوه بلا قتال على الأرجح [6]، وذلك بعد أن بقي صامدا زهاء ثلثمائة عام مع وجود اليهود في فلسطين حتى احتله داود على قول التوراة.

(1) (قض، 19: 10)، راجع أيضا (1 أخ، 11: 4).
(2) (2 مل، 5: 24)، (2 أ خ، 27: 3، 33: 14)، (أش، 32: 14)، (مى، 4: 8).
(3) (عب، 12: 22).
(4) (2 أ خ، 33: 14)، (1 مل، 1: 33، 38).
(5) (2 صم، 5: 8).
(6) The Story of the Bible", P. 377 ; Lods "Israel", P. 61 ; Vincent Jerusalem, Recherches ... "F. PP. 146 - 160"; Weill, "La Cite de David", PP. 8 - 13. 48 - 49.

ولم تقتصر هذه الأعمال على مدينتى " جازر " و " أورشليم " إذ وجد أمثالها من صنع الكنعانيين في مدن (جبعون " و " أبلعام " و " مجدو " [1].

فالمشروع الذي أقيم في مجدوا ويتألف من مدخل عمودى مدرج عمقه 35 مترا تحت مستوى الأرض الطبيعية، ومن نهاية هذا المدخل يبدأ نفق محفور في الصخر يمتد أفقيا مسافة 63 مترا حتى يصل إلى عين الماء (انظر المرتسم رقم 4) [2].

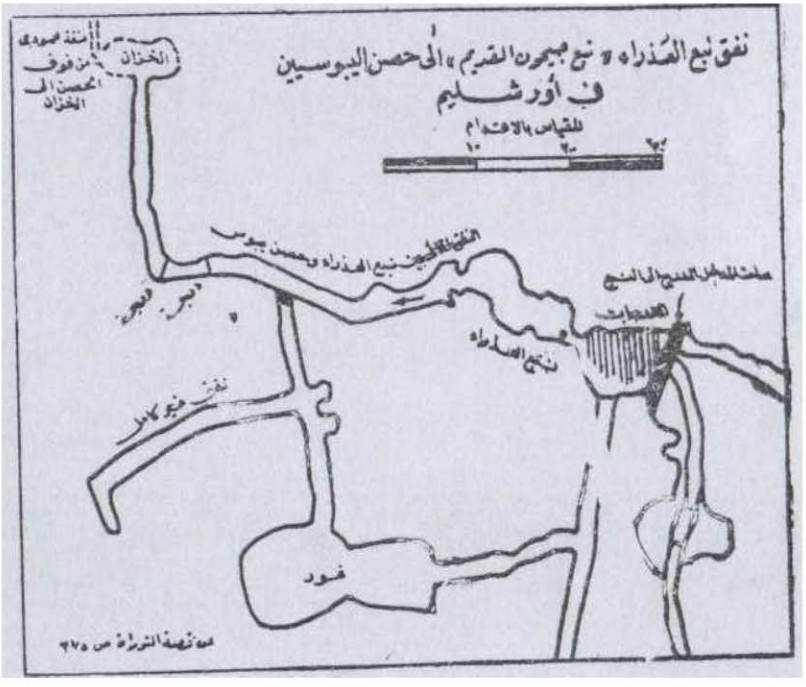

المرتسم رقم (3)

وقد اقتبس الكنعانيون فن البناء من البابليين وخاصة بناء الأقواس، إذ عثر على طاق من بناء الكنعانيين في مجدوا يتحمل ثقلا يزن 135 طنا [3].

(1) Lods "Israel", P. 61.

(2) Kathleen M. Kenyon, "Archoalogy in the Holy - Land", PP. 233 - 253.

(3) المرجع السابق، ص 64.

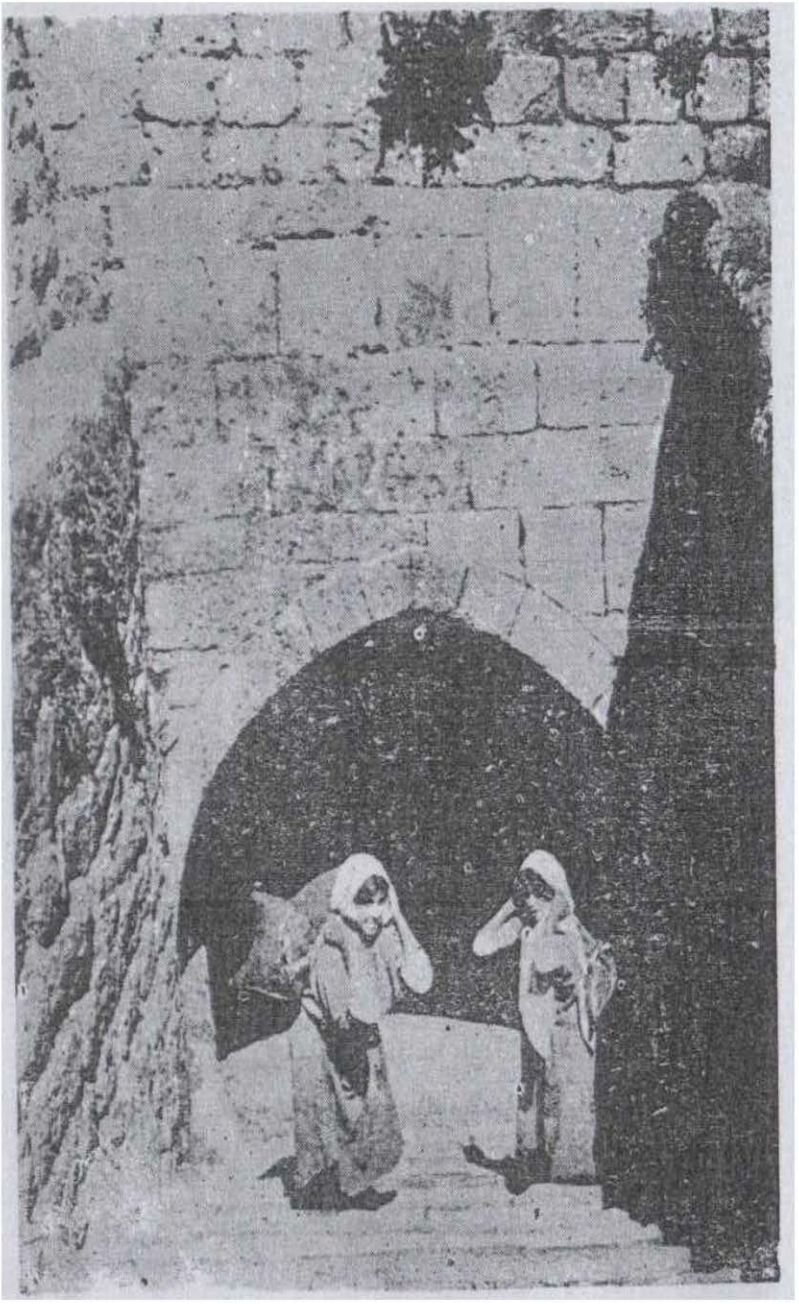

التصوير رقم (2)
المدخل المدرج إلى نبع العذراء (عين جيحون)

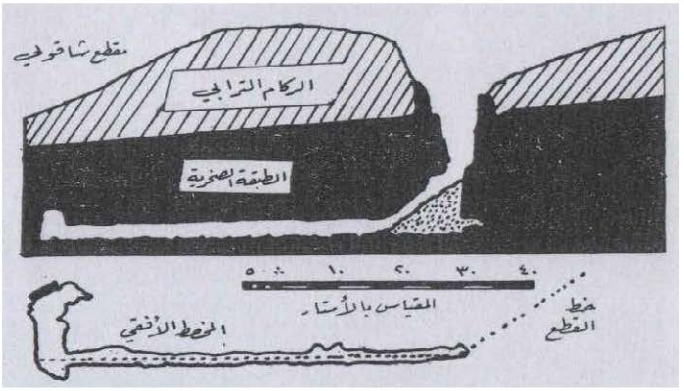

المرتسم رقم (4)
مخطط ومقطع لنفق " مجدو " المائي عن كاتلين لينبون
" آثار الأرض المقدسة " اللوحة 57

" والكنعانيون هم الذين اخترعوا السفينة واهتدوا إلى عمل الزجاج ووضعوا نظام الحساب وهم الذين اخترعوا أبجدية الكتابة المختزلة بالنسبة للخط المسمارى والهيروغليفى، فلا غرو أن أصبح الخط الكنعانى أساسا لجميع خطوط العالم المتمدن في الشرق والغرب " [1].

وقد ازدهرت التجارة على يد الكنعانيين الذين مارسوها بكفاءة تامة، وقد لعب المصريون دورا رئيسيا في الحفاظ على الأمن لتأمين المواصلات عبر البلاد الكنعانية، فقد كان ملك من ملوك الدويلات الكنعانية مسئولا عن سلامة مرور القوافل عبر أراضيه، وقد بلغت العلاقات التجارية بين مصر من جهة وبين بلاد كنعان وسورية ولبنان من جهة أخرى أوج توسعها بعد الفتح المصرى في القرن السادس عشر قبل الميلاد، فكان من أهم ما كانت تستورده مصر هو خشب أرز لبنان لصنع التوابيت وصنع المراكب البحرية، كل ذلك كان يساعد على تنمية وتوطيد العلاقات الودية بين الأطراف المعنية.

ولاشك في أن الحضارة الكنعانية، وبخاصة ما يتعلق منها بالعقائد الدينية، شأنها في ذلك شأن جميع الحضارات الأخرى قد تأثرت بدرجة محسوسة بحضارتى وادى النيل ووادى الرافدين بالإضافة إلى الحضارات الأخرى كالحيثية والحورية لكن على على رغم ذلك احتفظت بطابعها الكنعانى، أى الطابع

(1) الدكتور ولنغسون " تاريخ اللغات السامية "، ص 52.؛ (انظر ما يلي عن اختراع الكنعانيين للحروف الأبجدية في الفصل الثاني.

البدوى السامى.

التصوير رقم (3)

أسرة كنعانية من أريحا (أواسط العصر الحجرى المعدنى حوالى **4000** ق.م)

صورة تخيلية لأسرة كنعانية في إحدى غرف بيوت أريحا القديمة بالاستناد إلى المكتشفات التي عثر عليها في أطلال أريحا ومقابرها (عن كاتلين كينيون)، " آثار الأرض المقدسة "، اللوحة 3).

وأعظم عمل قام به الكنعانيون للحضارة هو اختراعهم الأبجدية الهجائية الذي يعتبر من أهم الاختراعات في تاريخ الحضارة البشرية، ويتفق الباحثون على أن أصل الحروف الهجائية في العالم بدأ في كتابات الأقوام السامية الغربية الذين تمتد مناطقهم من طور سيناء إلى أقصى حدود بلاد الشام شمالا وغربا، إذ وجدت في هذه المناطق أنواع كثيرة من النقوش السامية بالحروف الأبجدية، وقد حمل الأراميون فيما بعد الحروف الأبجدية من سواحل البحر المتوسط شرقا إلى آسيا حتى الهند، كما نقلها الفينيقيون إلى أوربا، وهكذا تغلبت الكتابة بالحروف الأبجدية على الكتابة بالمقاطع المسمارية التي كانت شائعة آنذاك (انظر ما يلى في الفصل الثانى حول اختراع العرب للحروف الهجائية).

ويقول العالم الألمانى الدكتور مورتكات في وصف الكنعانيين: " إننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل " بيبلوس القديمة " في وسط ساحل بلاد الشام وبالاستناد إلى المراسلات الملكية في مدينة مارى ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (الخ) بالقرب من أنطاكية، أن أناسا ساميين غربيين قد قطنوا بلاد الشام على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة ق. م. وأن هؤلاء كانوا على

قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابى.

" أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشاك اسم الكنعانيين، ولغتهم يجب أن تكون نفس اللغة التي اقتبسها أولئك اليهود الذين نزحوا إلى الأرض المقدسة من السكان الأصليين قبلهم هناك أى من الكنعانيين، وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل، أى سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر، إلى هذه المجموعة السامية الغربية أيضا " [1].

وقد أشار المؤرخون العرب إلى أن القبائل المعروفة بالبربر والتى استوطنت أراضى شمال أفريقيا كانت تقيم في الأصل في فلسطين إلى جانب الكنعانيين ثم أخرجت منها في عهد الملك داود، فيقول المسعودى في ذلك " إن أرض البربر كانت أرض فلسطين من بلاد الشام، وأن ملكهم كان جالوت، فلم يتملك عليهم بعده ملك، وأنهم انتهوا إلى ديار المغرب فانتشروا هنالك.. واختارت البربر سكنى الجبال والأودية والرمال والدهاس وأطراف البرارى والقفار "، وفى القول على أنساب البربر يذكر المسعودى أن الناس اختلفوا في بدء أنسابهم فمنهم من رأى أنهم من غسان وغيرهم من اليمن ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان " [2]، كما يقول ياقوت في معجمه (مادة البربر): " البربر هم من الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت وكانت منازلهم على الدهر ناحية فلسطين فلما أخرجوا من أرض فلسطين أتوا المغرب فتناسلوا فيه وأقاموا في جباله ".

ج ـ الكنعانيون والفينيقيون:

كانت المستوطنات الكنعانية منقسمة إلى دويلات صغيرة محصنة على غرار دويلات المدن في جنوبى العراق وكانت هذه الدويلات في نزاع وحروب فيما بينها في الغالب، فاضطر بعضها إلى التمركز في سفوح جبال لبنان للاحتماء بها، وهكذا نشأت أهم المدن الكنعانية في سفوح الجبال على السواحل، وقد سمى اليونانيون مجموعة هذه المدن البحرية التي كانوا على اتصال معها اسم " فينيقيا " (Phoinix) وكانت تمارس هذه المدن الصناعة والتجارة الخارجية، بينما كانت المدن الداخلية تحترف الزراعة وخاصة زراعة الأشجار في الغالب، وكان الفينيقيون يتسمون بالكنعانيين وظلوا على هذه التسمية حتى العهد الرومانى [3].

(1) مورتكات (أنطون): " تاريخ الشرق الأدنى القديم "، ص 250.
(2) (قض، 1: 31). المسعودى: " مروج الذهب "، ج2، ص 95.
(3) Iniversial Jewish Encyclopdia, vol. II, P. 651.

إن أهم المدن الفينيقية التي وردت أسماؤها في كتابات العمارنة المصرية والكتابات الأشورية ومدونات التوراة هى:

" عكو " (عكا حاليا)، " أكزيب " (الزيت حاليا)، " أحلب " (محلبافى الأشورية " [1]، " قانة " [2]، " صور " [3]، " صرفة " (صرفند حاليا) [4]، " صيدون " (صيدا حاليا) [5]، " بيريتوس " (بيروت حاليا)، بيبلوس " (جبيل حاليا)، " عرقه " [6]، " سين " (سيانو في الأشورية) [7] " صمار " (سومرة حاليا)[8]، " أرواد أو رادوس " (أرواد حاليا) [9]، " أوغاريث " (تل رأس شمرا حاليا) [10].

وقد اشتهرت بلاد كنعان بنشاطاتها التجارية التي كانت تمارسها بكفاءة تامة مستفيدة من موقعها الجغرافى الهام، الذي يقع على طرق المواصلات الرئيسية التي تربط بلدان آسيا عبر الصحارى العربية مع بلدان أوربا وشمال أفريقيا عبر البحر الأبيض المتوسط،في تنمية الحركة والعلاقات التجارية. فكانت المدن الكنعانية الداخلية ومن أهمها مدينة أورشليم التي كانت تتمتع بامتيازات خاصة في النواحى التجارية والاستراتيجية والدينية وبموقع هام يقع على ملتقى الطريقين الرئيسيين اللذين يربطان ما وراء الصحراء السورية بالساحل، وشمال كنعان بحنوبه، تؤلف مراكز حيوية للنشاط التجارى والحركة التجارية بين الشرق والغرب، أما المدن الساحلية أى المدن الكنعانية (الفينيقية) فكانت تؤلف مراكز حيوية للنشاط التجارى والحركة التجارية الخارجية بين بلاد كنعان وبين بلدان

(1) (قض، 1: 31).
(2) (يش، 19: 28).
(3) (يش، 19: 29).
(4) (أمل، 17: 9).
(5) (يش، 19: 28).
(6) (تك، 10: 17)، (1 أخ 1: 15).
(7) (تك، 10: 17).
(8) (تك، 10: 18).
(9) (تك، 10: 18).
(10) أنيس قريحة، " ملاحم وأساطير من أوغاريت "، بيروت 1966.

أوربا وشمال أفريقيا غربا، وقد اشتهر الفينيقيون سكان السواحل بصناعة السفن ولاسيما السفن ذات الصفوف الثلاثة من المجاديف مستفيدين من أرز لبنان الشهير، في تلك الصناعة لجودة خشبه وصلابته، وكذلك صمموا لأنفسهم نموذجا خاصا يختلف اختلافا كليا عن النموذج المصرى المعقوف من طرفيه نحو الأعلى عندما زودوا مقدمة سفنهم بمنقار معدنى بارز إلى الأمام يساعدها على شق الماء وزيادة سرعتها وبالتالى على أعطاب السفن المغيرة، وقد عثر على نماذج لهذه السفن ذات المناقير منقوشة على جدران قصر سنحاريب ملك آشور الذي كان قد استعان بالأساطيل الفينيقية في أغراضه الخاصة (انظر التصوير رقم 4) وقد ساعدهم ذلك على الابتعاد في أسفارهم وإطالة رحلاتهم البحرية، فاحتكروا أشهر الطرق البحرية وأقاموا لهم مستعمرات تجارية في قبرص وصقلية وسردينية وكورسيكا ومالطا وفى شمال أفريقية وفى أسبانيا.

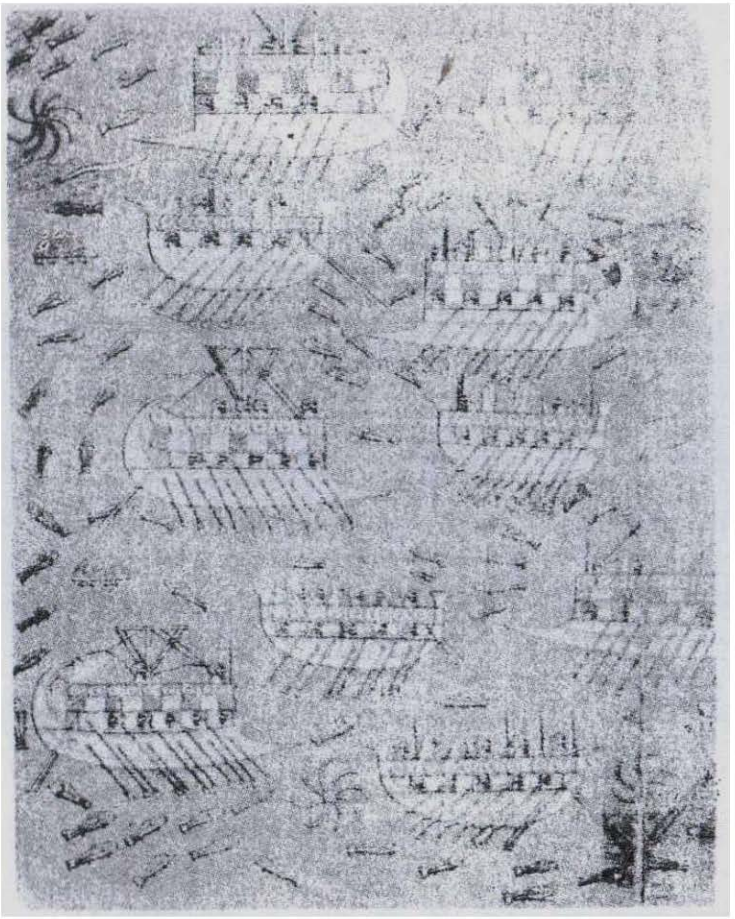

التصوير رقم (4)

أسطول تجارى فينيقى ترافقه بعض السفن الحربية ذات المناقير، من اللوحات التي كانت تزين جدران قصر سنحارين في نينوى (حوالى 700 ق. م)

وأنشؤوا المستودعات والمصارف في مرسيليا وروما وكولونيا وبريطانيا ومصر وأورشليم وتدمر. (انظر المرتسم رقم 5) وكانت " قرطاجة " الواقعة في جوار تونس الحالية أهم المستعمرات التجارية الفينيقية [1]. فقد اتسع نفوذها في البحر المتوسط حتى قيل: " لا يقوى الرومان على غسل أيديهم فيه إلا بإذن من قرطاجة " [2] وكان القرطاجيون مثل الفينيقيين يتسمون بالكنعانيين [1]، وقد بلغ

(1) R.B. Smith, "Carthage and the Carthaginians".

(2) العقيقى: " المستشرقون "، ج1، ص 19.

توسع الفينيقيين وازدهار تجارتهم أوجهما بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن قبل الميلاد [2].

المرتسم رقم (5)

وقد اشتهرت صور بثرائها حتى قال المؤرخون أن الفضة كانت مكدسة في أسواقها مثل التراب والذهب كوحل الطرقات، وأن بيوتها كانت أعلى من بيوت رومة على حد قول سترابو، وقد حافظت مع بسالة أهلها على استقلالها حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر بعد حصار دام زهاء عشر سنوات [3]، وقد عاشت فينيقيا 3500 سنة شهدت خلالها الفراعنة (2900 - 1300 ق.م)، الأشوريين (774 - 635 ق. م)، والكلدانيين (586 - 538 ق. م)، والفرس (538 - 332 ق. م)، ثم شهدت الإسكندر الأكبر وخلفاءه والرومان والبيزنطيين حتى قضى عليها الفتح الإسلامي سنة 635 م [4].

د ـ دور الفينيقيين في تقدم العلوم:

وقد ساهم الفينيقيون في نشر العلوم ونقلها إلى أوربا وتعاونوا مع زملائهم المصريين والفلسطينيين (الكنعانيين) والسوريين على إبراز الثقافة الفينيقية ذات الطابع الشرقي، فظهر منهم علماء من مشاهيرهم: " زينون الرواقي " (336 -

(1) Universal Jewish Eny, vol. II, P. 561.
(2) Hitti, "History of Syria", P. 103.
(3) انظر المراجع الآتية عن فينيقيا:
G. A. Cooke, "Phoenicia", Enc. Brit., 1965, Vol. 17, pp. 763 - 768; Contenau. "La civilization phenicience". 1946 Rawlinson, "History of Phoenicina", 1889.
(4) العقيقي: " المستشرقون "، ج1، ص 18.

264 ق.م)، وهو من أصل فينيقي ولد في قبرص وقصد آثينا سنة 314 ق. م، وأنشأ رواقا فيها سنة 301 ق. م، ونشر جمهوريته سنة 300 ق. م، فأعجبت الجمعية الأثينية به وسلمته مفاتيح الأسوار وأهدته تاجا من الذهب ولما توفى كتب على قبره: " لن يضيرك منبتك في فينيقيا ضيرا... الخ " ومنهم فيلون الجبيلي (61 - 141 م) وهو مؤرخ ومترجم له تصانيف كثيرة ومن أمهاتها " الديانة الفينيقية " والترجمة الكاملة "، لـ " تاريخ سانخونياتن " من اللغة الفينيقية إلى اللغة اليونانية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن فيلون الجبيلي هو غير فيلون الفيلسوف اليهودي الإسكندراني.

ومنهم أدريانوس الصورى (القرن الثانى الميلادى)، فيلسوف تبوأ كرسى البلاغة في آثينا وكان يذهب إلى الندوة في عربة، عدة جيادها من الفضة، وعليه أثواب تتلألأ بالجواهر ويستهل محاضراته بتلك العبارة المأثورة عنه: " ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقيا "، وقد استمع إليه هارديان وماركوس أورليوس، وخلعا عليه ووهباه الذهب والبيوت والعبيد، ولما قصد رومة عين أستاذا للبلاغة فيها [1]، ومنهم بابينان (175 - 212 م) تعلم القانون وعلمه في مدرسة الحقوق ببيروت، جعله سبتيموس سفيروس أحد قائدى الحرس الإمبراطورى، ومنهم أولبيان الصورى (170 - 228 م) تخرج في القانون من مدرسة الحقوق في بيروت وخلف منافسه بابينيان فيها، ومنهم أنتيباتر الصيداوى (القرن الثالث الميلادى) وأصله من صور تتلمذ على أدريانوس واختاره سبتيموس سفيروس أمينا له ومؤدبا لولديه، ومنهم بورفيروس الصورى (233 - 305 م) وهو أحد ألمع فلاسفة وعلماء الفينيقيين في القرن الثالث الميلادى، ولد في صور وتعلم فيها ثم انتقل إلى أثينا وروما والإسكندرية، حيث درس الأفلاطونية الجديدة على أفلوطين وعلمها بدوره في روما حتى وفاته، له عدد من المصنفات في الفلسفة والنحو والبلاغة والرياضيات وعلم النفس والموسيقى والنبات [2]، له ما ينيف على سبعين مؤلفا ومصنفا في مختلف العلوم الإنسانية: الفلسفة، النحو، البلاغة، الرياضيات، علم الفلك، علم النفس، الموسيقى، النبات... إلخ.

وقد اعتبرت شروحه في الفلسفة مرجعا أساسيا من مراجع فلسفة القرون

(1) نفس المصدر السابق، 24.
(2) المرجع السابق ص 25.

الوسطى في أوربا وكذلك اعتمدت شروحه في الفلسفة العربية أيضا، وقد ذكر له ابن النديم في الفهرست تسعة كتب مترجمة إلى اللغة العربية، أحرقت أهم مقالاته التي كانت تؤلف خمسة عشر مجلدا سنة 448 م.

وكان للفينيقيين اليد الطولى في تقدم علم الجغرافيا، فمن مراكز تجارتهم في صور وصيدا، ثم من مستعمراتهم الكبرى " قرطاجة [1] " أخذوا يجوبون البحار

(1) تعد قرطاجة (Carthage) من أقدم المدن التاريخية المشهورة في حوض البحر المتوسط، أسستها " ديدو " أميرة صور على ساحل شمال أفريقيا سنة 814 ق.م على قول المؤرخ الصقلي تيمابوس (Timaeus) سميت أحيانًا بالاسم الفينيقي " قرثادشت " (Qarthadasht) بمعنى المدنية الجديدة، ويرجح أن هذه التسمية الأخيرة انتقلت من مدينة للفينيقيين بهذا الاسم في قبرص ورد ذكرها في قائمة سرجون الثاني (720 ق.م) للبلاد التي كانت خاضعة للجزية، وما وافى القرن السادس ق.م، حتى صارت قرطاجة من أجمل العواصم وتنافس أمها " صور " جمالا وعظمة، وامتدت رقعتها من حدود برقة إلى الأطلسي وتمكنت من ضم جزر الباليار حتى جزر الميردا أليها، وقد سيطر أسطولها المؤلف من خمسمائة قطعة ذات خمسة صفوف من المجذفين حتى تمكن القرطاجيون من إقفال حوض البحر المتوسط في وجه التجارة اليونانية ثم الرومانية، ولما حاول اليونان أن يزاحموا الفينقيين في مستعمراتهم في صقلية وأسبانيا دمر القرطاجيون أسطولهم سنة 535 ق.م، واستمر نزاعهم مع القرطاجيين على صقلية في حروب متواصلة بين سنة 480 و368 ق.م، ثم انتصر الرومان لليونان على القرطاجين سنة 264 ق.م، فهزموهم في أكبر معركة سنة 256 ق.م، واضطروهم في النهاية إلى طلب الصلح سنة 241 ق.م.

وفي الربع الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد قامت قرطاجة بحملات حربية على أسبانيا استمرت تسع سنوات تمكن الأمير " هاد سروبال " (Hadsrubal) في النهاية من فرض سيطرته على الساحل الجنوبي من أسبانيا فأنشأ مدينة هناك سنة 227 ق.م، سماها " قرطاجنة " (Carthagena) وعقد اتفاقية مع رومة حددت بموجبها حدود منطقة نفوذ كل من المعنيين بالأمر في جنوب شرقي أسبانيا، وبعد مرور حوالي ثمانين سنة تمكن الرومان سنة 146 ق.م، من التغلب على قرطاجة الأم فسقطت بأيديهم وصمموا على تدميرها تدميرًا تامًا، فأحرقوها وظلت النيران مشتعلة فيها سبعة عشر يومًا، ولم يسمحوا لأحد أن= =يسكنها، إلا نه أعيد إنشاؤها فيما بعد فأعاد يوليوس قيصر بنائها وأسكن فيها جماعة ممن لا أرض لهم، وفي سنة 29 ق.م، أرسل أغسطس جماعة أخرى إليها وجعلها مركزًا لإدارة المقاطعة الرومانية في أفريقيا، وقد سميت المستعمرة الرومانية الجديدة في شمال أفريقية

فاحتكروا أشهر الطرق البحرية حتى امتدت اتصالاتهم التجارية من الجزر البريطانية إلى البحر الأحمر.

ويرى لنا هيردوتس (450 ق. م) أن الملك " نيخو " الذي حكم مصر بين سنة 609 وسنة 593 ق. م أرسل جماعة من الفينيقيين ليطوفوا حوالى أفريقيا فأدى ذلك إلى استكشاف ليبيا لأول مرة، وإليك ما كتبه هيرودوتس في هذا الصدد قال:

" ويظهر أن ليبيا نفسها يحيط بها البحر إلا من جهة اتصالها بآسيا، ونيخو ملك مصر هو أول من نعلم أنه أثبت ذلك بالبرهان فإنه لما توقف عن حفر الترعة التي كان المراد من حفرها إيصال مياه النيل إلى الخليج العربى (البحر الأحمر) أرسل جماعة من الفينيقيين في المراكب وأمرهم أن يدخلوا في رجوعهم إلى البحر الشمالى مارين بأعمدة هرقليس (جبل طارق) وبهذه الكيفية يرجعون إلى مصر.

" فركب الفينيقيون بحرا أيريترية وسافروا في البحر الجنوبى، فلما دخل الخريف نزلوا من ليبيا في المكان الذي وجدوا فيه وزرعوا القمح وانتظروا وقت الحصاد وبعد الاستغلال ركبوا البحر وسافروا هكذا سنتين، وفى السنة الثالثة اجتازوا أعمدة هرقليس (جبل طارق) ورجعوا إلى مصر وهكذا عرفت ليبيا لأول مرة " [1].

ومن الغريب أن هيرودوتس لم يشر في تاريخه إلى الرحلة التي قام بها " حانون " القرطاجى في حدود سنة 60 ق. م، والتى تعد أهم بعثة فينيقية أرسلت للطواف في غرب أفريقيا، وقد دون " حانون " وصفا رائعا لرحلته هذه باللغة

" مستعمرة جوليا القرطاجية " (Colonia Julia Carthago). وقد ازدهرت المدينة في هذا العهد الجديد حتى أصبحت في مصاف المدن الشهيرة في ذلك الزمن مثل الإسكندرية وأنطاكية وأصبحت المدينة المفضلة لدى الأباطرة الرومان مع أنه لم يسكنها أحد منهم، وقد جعلها هادريان في عبده وسماها باسمه " هادريانو بوليس " (Hadrianopolis) ثم أخذت المدينة تتدهور منذ القرن الثالث الميلادي حتى فقدت أهميتها السياسية والتجارية، هذا مع العلم أن قرطاجنة الأسبانية ما زالت قائمة تعرف باسمها القديم " قرطاجنة ". (دائرة المعارف البريطانية، طبعة 1965، ج4، ص 969، نجيب العقيقي " المستشرقون "، ج1 ص19).

(1) تاريخ هيرودوتس، الكتاب الرابع، الفقرة 42.

الفينيقية على لوح وضع في معبد الإله " كرونوس " (إيل) بحسب التسمية الفينيقية، في قرطاجة، وقد وصلت إلينا ترجمة يونانية مجهولة التاريخ لهذه الوثيقة بعنوان " رحلة حانون البحرية " وهى تعد اليوم أقدم وثيقة تاريخية في علم الجغرافيا القديمة، توجد لها ترجمة إنجليزية قام بها المستر فالكونر في سنة 1797م [1]، كما توجد خلاصة عن هذه الرحلة مع خارطة مفصلة للمواقع التي وصل إليها " حانون " وجماعته في كتاب " جغرافية هيرودوتس " تأليف جيمس رينيل ص 719 - 752، وقد جاء في مقدمة هذه الوثيقة أن الغاية من إرسال القرطاجيين هذه الحملة إلى ما وراء أعمدة هرقليس (جبل طارق) هى تأسيس مستعمرات من الفينيقيين في ليبيا، وعلى هذا الأساس أبحر " حانون " ومع ثلاثون ألف شخص من رجال ونساء في أسطول مؤلف من ستين مركبا من ذوات الخمسين مجدافا محملة بجميع مستلزمات البعثة الضرورية لتحقيق أغراضها.

يستدل مما تقدم على: أن الفينيقيين بحكم احتكاكهم بالثقافة البابلية وامتداد اتصالاتهم التجارية إلى ما وراء البحار واكتشافاتهم على ساحل أفريقيا الغربى وتأسيس مستعمراتهم على طول شواطئ البحر المتوسط أصبحت لديهم معلومات جغرافية وخبرة واسعة في عالم الملاحة البحرية مما حمل المصريين على الاستعانة بهم وبسفنهم في رحلاتهم البحرية، ولما ظهرت الإمبراطورية الأشورية إلى الوجود كان اتساع حدودها يستوجب الإحاطة بجغرافية البلاد التي وقعت تحت سيطرتهم فاحتذوا حذو المصريين في الاستعانة بالفينيقيين وخبرتهم لتوسيع معلوماتهم الجغرافية عن البلاد التي احتلوها والبقاع المجاورة لها، وهكذا بقيت أكثر الأعمال التجارية داخل حدود الإمبراطورية الأشورية بيد التجار الصوريين من الفينيقيين، وقد امتدت بعيدا حتى وصلت إلى حدود الهند شرقا وأسبانيا غربا، وقد وهب الملك أسرحدون (681 - 669 ق. م) قسما كبيرا من سواحل فلسطين لملك صور تقديرا لمساعداته.

(1) T. Falconer. "The Voyage of Hanno; translated and occompained with the Greek Text". London, 1797.

انظر أيضًا وسف رحلة حانون ملك القرطاجيين حول مناطق ليبيا في:

Rawlinson, "Phoenicia", pp. 389 - 292.

ومما يدل على تقدم الفينيقيين العلمي هو أنهم بلغوا من المعرفة درجة توصلوا معها على استنباط طريقة فنية لتحنيط جثث ملوكهم لا تقل إتقانا عن الطريقة المصرية، وتوجد الآن في متحف استانبول إحدى " مومياءاتهم " (مومياء الملك ميدا المدعو " تابينيت " التي تدل على مدى تقدمهم في هذا المضمار.

ومجمل القول إنه يمن الجزم بأن الأشوريين ثم اليونانيين استمدوا أكثر ما في ثقافتهم وحضارتهم وعلومهم من البابليين والفينيقيين، وهذا شأن المدنيات العالمية لما قامت مدنية إلا واستمدت مادتها مما سبقها من مدنيات أخرى قامت قبلها، والمعلوم أنه بعد سقوط قرطاجة بيد الرومان في القرن الثانى قبل الميلاد، حدث خمول في مسيرة الحركة العلمية في فينيقيا ولكنها سرعان ما عادت إلى نشاطها الأول فأصبحت صور وصيدا مركزا للعلوم والمعرفة من جديد، وقد حلت هذه المرة اللغة اليونانية بدل اللغة الفينيقية وصار الفينيقيون يحملون أسماء يونانية، إلا أنه بقى هناك عدد من الفينيقيين الذين تمسكوا بالثقافة والتقاليد الفينيقية، وقد برز من بين هؤلاء مارينوس الصورى والمعروف أن مارينوس هذا ألف كتابا في الجغرافيا ووضع خارطة العالم في سنة 120 للميلاد كانت تستند إلى معلومات جغرافيا فينيقية، ويقول عنه رولنسون أنه كان أول كاتب في الجغرافيا اتخذ الطريقة العلمية الرياضية في صنع الخرائط المستندة إلى خطوط الطول والعرض، وقد كان عمل بطليموس في القرن الثانى الميلادى قائما كليا على دراسة مارينوس في الجغرافيا وخارطته المستندة إلى مدونات فينيقية سابقة (1).

والشائع عند الباحثين في التاريخ القديم أن الفينيقيين جاؤا في الأصل من منطقة البحرين والساحل المقابل لها، فذكر الرحالة الجغرافي سترابون (القرن الأول ق.م) في كتابه في الجغرافيا (16: 3 و4) أن هناك جزيرتين في الخليج العربي باسم (صور وارواد) وفيهما هياكل تشبه هياكل الفينيقيين فقال ما نصه: " إذا سرت في الخليج العربي رأيت جزيرتين (صور وارواد) وفيهما هياكل تشبه هياكل الفينيقيين ". والمعلوم أن صور مدينة الفينيقيين الكبرى وارواد جزيرة لهم هناك، فهذا الاتفاق في أسماء المدن وهذا التشابه في الهياكل الدينية بين بلدتين متباعدتين لا ريب أنه يدل على أن وطن الفينيقيين الأول هو الخليج العربي، إذ

(1) Rawlinson, op. cit, PP. 404, 548.

كانت عادة العرب إذا هاجروا هجرات كبرى إلى أقطار أخرى أن يتخذوا لهم في الوطن الجديد مدنًا على اسم مدن وطنهم الأول، ففي الأندلس مثلاً سموا غرناطة دمشق الغرب، وسموا المدينة الخضراء تذكيرًا بالخضراء دار الخلافة بدمشق، وسموا أشبيلية باسم (حمص) واتخذوا لهم في الأندلس رصافة مثل رصافة الشام.

لذلك يرى البعض أن التقاليد كلها متفقة على أن الفينقيين هاجروا من وطنهم في البحرين سالكين الساحل فسكنوا في بادئ الأمر بالقرب من الكوشيين إخوتهم الأصليين عند أرياف البحر الأحمر أو الخليج العربي أي في الجهة التي تسمى اليوم (القطيف) وأنهم سلكوا طريق القوافل الممتدة من ناحية القطيف ومتصلة ببلاد الإحساء وكامل وادي غطفان إلى حد جبل طويق، ثم اتجهوا نحو وادي الفرات ومن وادي الفرات انساحوا إلى لبنان حيث استقروا على الساحل في المنطقة التي عرفت باسمهم أي فينيقة (Phoenicia) ويستشهد الباحثون بالمقابر التي عثر عليها في البحرين التي يرى الذين عنوا بدراستها وفحصها أنها مقابر فينقية [1].

وقد روى هيرودوتس الذي زار فينيقيا عام 450 ق.م واجتمع بأهلها وتحدث إليهم عن ماضيهم أن الفينقيين - كما يخبرون هم أنفسهم - أقاموا أولاً عند البحر الإريتيري ولكنهم رحلوا من هناك وجاؤوا إلى سورية وسكنوا سواحلها، لأن اليونانيين كانوا يسمون كل المياه المحيطة بجنوب جزيرة العرب من الجهات الثلاث (بحر إريتريا) [2]، وذكر هيرودوتس أيضًا في العدد الأول من الكتاب الأول " أن الفينيقيين كانوا في أقدم أزمانهم يقطنون ساحل (بحر إريتريا).

هـ - الديانة الكنعانية الفينيقية:

أما الديانة الكنعانية الفينيقية فعلى الرغم من تأثير الثقافة المصرية والثقافة البابلية والثقافة اليونانية فيها لاحتكاكها بهذه الثقافات احتفظت بطابعها البدوى السامى وبالتقاليد القديمة السائدة في شبه جزيرة العرب، فكان أكبر آلهة الكنعانيين وأعلاها مقاما الإله " إيل " الذي لقب بالإله العلى أو الإله العظيم، وهو نفس اسم الإله (إيل) الوارد في التوراة [3]، وصفته التراتيل الشعرية الكنعانية بأنه هو الذي

(1) (الدكتور جواد علي) " المفصل في تاريخ العرب " 1: 567 نقلا عن:
Hastings (Dictionary of the Bible) p. 725

(2) العدد 89، الكتاب السابع.

(3) ورد اسم " إيل " في التوراة 229 مرة في أسفار التكوين والخروج وأشعيا وأيوب.

يبعث بمياه الأنهر لتجرى في الأرض وتحيى مواتها، وهو الذي يبعث بالمطر فيجعل الأودية تفيض عسلا، وهذا هو نفس الاصطلاح الذي ورد في التوراة في وصف خصوبة أرض كنعان [1]، والإله " إيل " هو الذي يمنح الإذن بإنشاء المعابد إلى الآلهة الأخرى، وهو القادر على كل شئ والحاكم والملك المطلق لا ينافسه منافس، ولا يستطيع أحد أن يغير من إرادته وحكمه السامى، وجميع أرض كنعان هى أرض الإله إيل، وقد عثر على كتاب موجه إلى أحد الملوك الكنعانيين يستهله كاتبه بذكر الإله وتسميته بـ " سيد الآلهة الحامى " (The Protection of the Lord of Gods) ويقع مقر الإله (إيل) باعتقاد الكنعانيين في منطقة في الغرب حيث تغيب الشمس عند مصب الأنهر في البحر وقد سمى مقامه بحقول إيل (Fields of El) ويرى العلامة " شافر " أن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم والتفوق لإله واحد فوق الجميع يدل دلالة واضحة على ميل الكنعانيين لتقبل عقيدة التوحيد [2]، وانطلاقا من هذه العقيدة نطق الملك الكنعانى " ملكى صادق " ملك أورشليم باسم " الله العلى " وبهذا المفهوم كان الإله العلى مالك السماوات والأرض يتجلى واضحا في العقل الكنعانى.

وقد جاء ما يؤيد ذلك على لسان التوراة، فلما دخل الموسويون إلى أرض كنعان كانت هناك قبيلة كنعانية بزعامة نبى كنعانى يدعى " بلعام " تمارس عقيدة التوحيد، وقد كان لهذا النبى الموحد مكانة روحانية سامية في أرض كنعان كلها وهذا الأمر هو الذي حمل شيوخ كنعان وموآب ومديان على أن يقصدوه للتوسل إليه أن يلعن قوم موسى لردهم عن غزو بلادهم ولكن الرب أوحى إليه بعدم الاستجابة إلى طلبهم، وهذا ما يدل أيضا على أن عقيدة التوحيد كانت معروفة عند الكنعانيين [3].

وفى تعليق على ديانة الكنعانيين ومكانة الإله (إيل) فيها يقول الشيخ نسيب الخازن: " لم تكن أخلاق الكنعانيين مهيأة للغزو والتقتيل، كانت ديانتهم وملاحمهم وآدابهم تدور على حول أبوة الواحد " إيل " ومن صفاته أنه السيد (بعل) و

(1) (خر، 3: 8، 17)، (لا، 30: 21)، عد، 16: 13 - 14)؛ (تث، 26: 9، 15)؛ (يش، 5: 16)؛ (إر، 11: 5)؛ (حز، 20: 6).

(2) C.F.A. Schaeffer, "The Cuneiform Texts of Ugarit", London, 1939, PP. 59 - 72.

(3) (عد، ص: 22).

(أدون) كما نحن نقول الخالق الجبار.. الخ والعناية [1].

وقد ورد اسم الإله (إيل) في الكتابات الفينيقية بصيغة (إيلوس) وهو نفس الإله (إيل) الكنعانى الذي عرف بأبى السنين كما تسميه محفوظات أوغاريت، مطلح ملحمة " بعل وعناة " [2].

وكان للإله (إيل) نفس المكانة السامية عند الأراميين، فقد ورد اسمه مضافا إلى أسماء بعض ملوكهم، فقد اشتهر بين الملوك الأراميين الملك " متى - إيل " ملك أرباد الذي عقد معاهدة دفاع مشترك مع الملك الأشورى نيرارى (754 - 745 ق. م) [3]. كما اتخذ الهكسوس الذين حكموا مصر بين سنة 1785 وسنة 1580 ق. م اسم الإله " إيل " للتبرك به فأضيف إلى أسماء بعض ملوكهم، ومما يثبت جليا أن كلمة " إيل " بمعنى الإله العظيم كنعانية عربية الأصل أن أكثر ملوك معين وسبأ صاروا يضيفون اسم الإله " إيل " إلى أسمائهم تبركا به (انظر التصوير رقم 53).

ويذكر قاموس الكتاب المقدس [4] أن كلمة " إيل " كلمة سامية ومعناها في الأكادية الإله بصورة عامة أما في الأوجرتية [5] فإنها تعنى " أبو الآلهة ".

وكانت للإله " إيل " باعتقاد الكنعانيين زوجة هى الإلهة " عاشيرة " الإلهة الأم، إلهة البحر، ومن أولادها الإله " بعل " إله الخصب والأمطار، وهو البعل والبعليم والوارد في التوراة والذى عاد اليهود فعبدوه وسجدوا له [6]، وكان للبعل أخت هى الإلهة " عانات " ومن الآلهة الكنعانية أيضا الإله " مولك " أو الإله " ملكوم " وهو إله بنى عمون الذي ورد ذكره في التوراة باسم رجس بنى عمون وقد عبده اليهود أيضا [7]، وكان الكنعانيون يعبدون أيضا " عشتاروت " إلهة

(1) الشيخ نسيب الخازن، " من الساميين إلى العرب "، ص 40.
(2) يوسف الحورانى، " نظرية التكوين الفينيقية "..
(3) 6 سومر، م 19 (1963)، ص 119.
(4) الطبعة الثانية، آذار 1971، بيروت، ص 142.
(5) نسبة إلى أوغاريت.
(6) لا يكاد يخلو إصحاح من إصحاحات سفر القضاة من إشارة إلى البعل أو البعليم وكذلك إصحاحات سفيرى الملوك، راجع على سبيل المثال لا الحصر: (قض، 1: 11، 13)؛ (امل، 16: 31).
(7) (1 مل، - 11: 5، 7)، راجع أيضا (، 20: 2 - 5)، (2 مل، 23: 10)؛ (ا ع، 7: 43).

الخصب وهى تقابل الإلهة " عشتار " البابلية، وقد ورد ذكرها في التوراة وقد عبدها اليهود (1) أيضا، وكان معبود مدينة بيبلوس الإله " أدونيس " وهو يمثل إله الخصب مثل الإله " بعل ".

وكان الإله (بعل) يمثل الدورة الإنباتية التي تجد ما يقابلها في التقاليد الدينية السامية الأخرى، ففى ملحمة شعرية عثر عليها في أوغاريت عرض خلاب لموت بعل ثم عودته إلى الحياة ليمثل الدورة الموسمية بموت النبات في الصيف ثم عودته في الربيع بعد سقوط الأمطار، وتصف الملحمة كيف تقوم الإلهة " عانات " بحمل جثمان " بعل " بعد أن قتله " موت " إله مملكة الموت، ودفنه هناك مع تشييع يليق بمقامه، ونجد بعد ذلك وصفا شعريا يمثل الفرح بعودة " بعل " إلى الحياة تلك العودة المصحوبة بالأمطار وطغيان الوديان وجريان مياهها وقد شبهت بالعسل، ويلاحظ أن مثل هذا الوصف ورد في المزامير التوراتية، وفى ملحمة أخرى عثر عليها في أوغاريث أيضا وصف شعرى رائع تدور حوادثه حول الاستئذان من الإله (إيل) لبناء قصر إلى (بعل " وقيام الإلهة عاشيرة برحلة لتحقيق هذه المهمة (2). وقد وجد في الكتابات الكنعانية ما يشابه تماما تنازع الإله مردوخ مع قيامه عند البابليين، ففى الملاحم الكنعانية ما يشير إلى تنازع الإله " بعل " مع الإله " يم " إله البحار والأنهار وانتصار الأول على الثانى.

وفى المتحف الوطنى بدمشق تمثال للإله " إيل " كبير آلهة الكنعانيين وسيدها عثر عليه في أوغاريت (تل راس شمرا) يشاهد وهو جالس فوق عرشه، وعلى رأسه تاج وعلى جانبى الرأس يوجد ثقبان هما مكان القرنين الذين يعتبران من رموز الربوبية ويرتدى ثوبا طويلا وينتعل حذاء ذا مقدمة دقيقة ومحنية إلى الأعلى، يده اليسرى تقبض على صولجان، إلا أنه لم يعثر على الصولجان، والتمثال مصنوع من البرونز ومغشى بصحيفة من الذهب.

إن الكنعانيين إجمالا سبقوا أمم العالم طرا في نشر أرقى ديانات الأمم السامية الوثنية، لذلك كان تأثيرهم الدينى لا يقل عن تأثيرهم العلمى والصناعى، ففى ذلك يقول الدكتور ولفنسون: " وللكنعانيين عدا تأثيرهم العلمى والصناعى على العالم

(1) (1مل، 11: 5)، راجع أيضا (قض، 2: 13)؛ (اصم، 7: 4137).

(2) Pritchard, "Archaeology and the Old Testament" p. 110 ff. Moscati, "Ancient Semitic Civilizations", pp. 112 ff., Wood, "The Religion of Canaan". Jour. Of Bibl. Lit., 1916, 1-133, 163 - 379.

المتمدن فضل عظيم آخر هو تأثيرهم الدينى في جميع الأمم السامية، فقد كانت ديانتهم أرقى ديانات الأمم السامية الوثنية لذلك تأثرت بها ديانات بابل وورث الأراميون والإسرائيليون والعرب هذا التأثير " [1].

و ـ بلاد كنعان في النصوص المصرية القديمة:

إن بلاد كنعان عدا تميزها بموقعها الجغرافى في عالم التجارة بين الشرق والغرب كانت تتميز أيضا بموقع استراتيجى هام أيضا، إذ كانت أشبه بالجسر الذي يترتب على كل فاتح من الشرق أراد غزو مصر، أو على عكس ذلك على كل فاتح من مصر أراد غزو الشرق الأدنى، أن يعبر هذا الجسر، لذلك كانت مصر وهى أقرب دولة حضارية إليها، أولى الدول التي أقامت اتصالات مع بلاد كنعان، وأقدم ما وصل إلينا من أخبار فراعنة مصر عن هذا الاتصال هو الكتابة التي عثر عليها من عهد الفرعون " سنيفرو " أول ملوك السلالة الرابعة (حوالى 2700 ق. م) [2] والتى تشير إلى شحن أربعين سفينة من خشب الأرز اللبنانى إلى مصر، وقد سجلت هذه الكتابة على لوح من الحجر الأسود (الديوريت). ثم تطورت هذه الاتصالات التجارية السلمية إلى تدخل مصر سياسيا وعسكريا في شئون هذه الأقطار بغية بسط نفوذها عليها.

(1) ولفنسون " تاريخ اللغات السامية "، ص 53.

(2) W.B. Emery, "Archaic Egypt", 1967, p. 21.

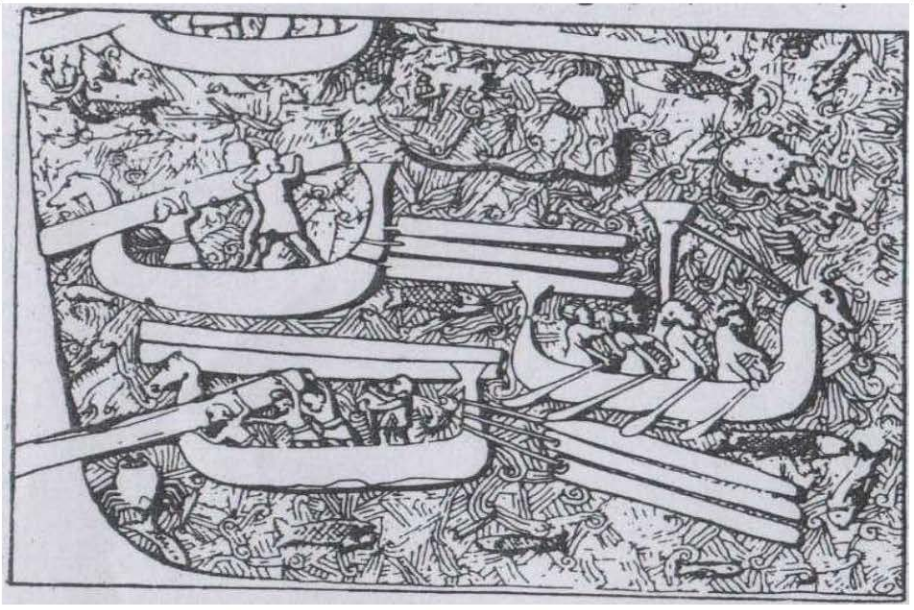

التصوير رقم (5)
أسطول تجارى فينيقى أثناء تحميله بجزوع الأشجار

وأقدم ذكر لحملات المصريين على بلاد كنعان ورد في كتابة عثر عليها من عهد الفرعون بيبى الأول ثالث ملوك السلالة السادسة (حوالى 2350 ق. م) وهى منقوشة على قبر قائد إحدى هذه الحملات، وهو يدعى " أونى " الذي دون أخبار انتصاراته على جماعات البدو التي كانت تهاجم الكنعانيين، وهناك ما يدل على أن مصر تمكنت من بسط نفوذها على جميع بلاد كنعان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، إلا أنها لم تحاول تمصيرها بل اكتفت بتحصيل الجزية من سكانها، وتركت السكان يمارسون عاداتهم وديانـاتهم من غير أن يتدخلوا في شئونهم الاجتماعية الأخرى، بل كانوا ينجدونهم في حروبهم مع أعدائهم، وقد جاء في الكتابات المصرية القديمة أيضا أن الملك سيزوستريس الثالث (السلالة الثانية عشرة) صعد على أرض كنعان في حوالى سنة 1850 ق.م واستولى على المدينة.

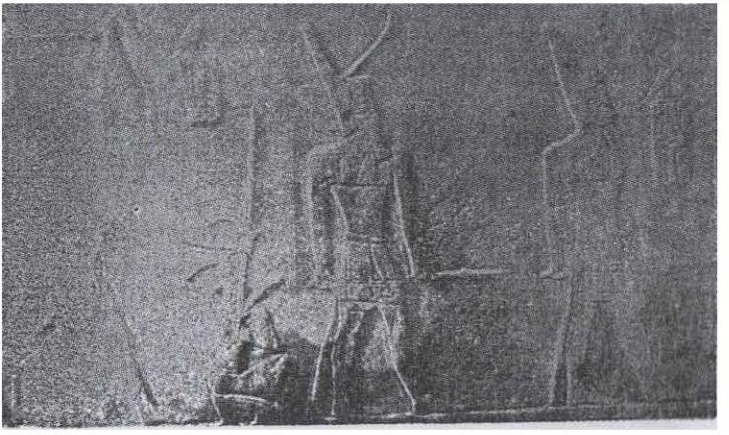

التصوير رقم (6)
الملك المصري " سخمخت " (Sekhemkhet) أحد فراعنة السلالة التالية (2686 - 2613 ق. م) يجلد رئيس قبيلة آسوية

من مسلة عثر عليها سنة 1954 في سقارة المسماة (س ك م ن) وقد رجح البعض أن المقصود بها مدينة " شكيم " حاليا [1].

ومن أهم الوثائق التي عثر عليها المنقبون وثيقة بالغة الأهمية ترجع إلى عهد سنوسرت الأول (1971 - 1928 ق. م) تضمنت وصفا مسهبا لبلاد كنعان كان قد دونه أحد كبار حاشية القصر الفرعونى المدعو " سينوهى " والظاهر أن " سينوهى " هذا كان قد ورط نفسه في مؤامرة سياسية اضطر على أثرها إلى مغادرة مصر فقصد بلاد كنعان متخفيا، فهو يصف أولا الطريق الذي سلكه باتجاه قناة السويس الحالية وبر ساحل البحر حتى وصل إلى بلاد الفينيقيين (بلدة بيبلوس - جبيل) ومنها اتجه إلى " قدمة " في الصحراء الواقعة شرقى دمشق حيث قضى 18 شهرا، وفى شمال فلسطين استضاف رئيسا من رؤساءُ عشائر العموريين فرحب به بعد أن تعرف على شخصيته ودعاه ليسكن معهم قائلا: " إن مصر بلد جميل ولكن إذا بقيت معنا فسوف تجد بلدنا جميلا أيضا " فوافق " سينوهى " على البقاء في ديارهم حيث حظى بعناية تامة من " عمى إنشى " رئيس القبيلة الذي زوجه من ابنته الكبرى وجعله زعيما للقبيلة، فصارت له بساتين وحقول ومواشى، كما صار له أولاد، شارك هو وأولاده في حروب القبيلة وعزواتها، فأصبح بذلك مندمجا كليا بالحياة القبلية المتسمة بالنزاع الدائم بين أهل

(1) T. H. Caster, "Enc. Brit", vol. 4, 1955, P. 727.

المدر (الزراع) وأهل الوبر (الرعاة) وبين جموع الغزاة من البدو والذين ليس لهم مقر ثابت، وهنا يصف " سينوهى " الحياة الشاقة التي عاشها في هذا المحيط الخشن حتى داهمته الشيخوخة فأخذ يحن إلى وطنه الأصلى، ويذكر في آخر القصة كيف أن الفرعون سنوسرت وجه إليه كتابا يدعوه فيه للعودة إلى وطنه ندونه أدناه لأهميته حيث يظهر لنا ناحية من نواحى التفكير الدينى السائد في تلك الأزمان، وهذا نص الخطاب كما ورد في القصة: ".. استعد للعودة إلى مصر كى تشاهد مرة أخرى القصى الذي نشأت فيه فتقبل التراب أمام البوابتين العظيمتين، تذكر اليوم الذي ستدفن فيه ويشيعك الناس بأبهة وتعظيم حيث تدهن بالزيت قبل بزوغ الفجر وتلف بالقماش فتباركك الآلهة (تيت) [1] وسوف تشيعك الجماهير في يوم حفلة الدفن ويكون كفنك من الذهب المزين باللازورد وسوف يوضع جثمانك على نعش تجره الثيران وتتقدمه جوقة المقرئين وسوف يرقص الناس رقصة الأقزام على مدخل قبرك، وتتلى الصلوات القربانية من أجلك، وسوف تبنى أعمدة قبرك بالحجارة بين قبور العائلة المالكة، ويجب أن لا يكون رقودك على أرض غريبة يدفنك فيها الأسيويون (أهل آسيا) الذين يلفونك (أى يلفون جثمانك) داخل جلود الغنم ". ولما تسلم سنيوهى هذا الخطاب طار من الفرح والابتهاج وقرر العودة على الفور فقام بتصفية ملكيته بين أولاده ونصب أكبرهم زعيما على القبيلة التي كان يتزعمها، وقد اصطحبه عند مغادرته بلاد كنعان جمع غفير من أبناء عشيرته إلى نقطة الحدود المصرية، ومن هناك اصطحبه رجال الحكومة الفرعونية إلى العاصمة " ممفيس " ويمضى " سينوهى " فيقول: " وجدت جلالته جالسا على العرش العظيم في القاعة الذهبية الفضية، ثم دخلت عائلة الملك إلى القاعة، فقال الملك للملكة: انظر هو ذا سينوهى يعود إلينا أسيويا بعد أن أصبح بدويا، فصرخت الملكة والأمراء أولادها، بصوت عال قائلين لجلالته بصوت واحد: بالحقيقة لا يمكن أن يكون هذا سينوهى يا جلالة الملك. فأجابهم قائلا: بلى إنه هو بالفعل ".

وأخيرا يختتم " سينوهى " قصته بقوله: " نقلت إلى عمارة ملكية حيث كانت توجد أشياء عجيبة: هناك حمام وأشياء أخرى من بيت الخزينة الملكية، وكانت توجد ملابس من الحرير الملكى كلها معطرة بالمر والعطور الفخمة الزكية، وكان هناك خدم ممتازون من خدم الملوك موزعون على الغرف كما كان هناك

(1) المقصود بذلك إجراء عملية التحنيط.

طباخون ماهرون، وكان كل من هؤلاء يؤدى مهمته بدقة، فالسنون التي طويتها أكلت جسدى، حلقت ذقنى ومشطت شعرى، ونفضت عنى الغبار الثقيل (الأوساخ) ونزعت الثياب الخشنة - ثياب (جوالى الرمال) - وارتديت ثيابا من الحرير مكانها وتعطرت بأحسن العطور الموجودة في البلد، واضطجعت مرة أخرى على سرير، وهكذا عشت معززا مكرما في بيت الملك حتى آن الأوان لأهجر هذه الحياة [1].

وتتجلى هذه القصة بصورة واضحة المقارنة بين الحضارة الريفية البدوية الخشنة التي كان يعيشها الكنعانيون المتأثرون بالمحيط البدوى وبين الحضارة المدنية المصرية ذات الترف والعيش الرغيد، ومن غريب الصدق أن " سينوهى " يستعمل عندما يصف أرض كنعان نفس العبارات التي استعملتها التوراة في وصفها بعد ألف وخمسمائة عام: " أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبنا وعسلا " [2]، أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان، أرض زيتون وعسل " [3]، والظاهر أن قصة " سينوهى " كانت من القصص المحببة لدى المصريين حيث وجد منها نسخ كثيرة مما يدل على أنها كانت واسعة الانتشار في تلك الأزمان.

ومن أهم ما تركه فراعنة مصر القدماء من الأوصاف لبلاد كنعان أيضا، كتابات الفاتح المصرى الشهير تحوطمس الثالث (1503 - 1449 ق. م)، وذلك في أعقاب طرد المصريين للهكسوس من بلادهم [4]، فورد في مدوناته أنه قام بسبع عشرة حملة على سورية وفلسطين، فامتدت تخوم فتوحاته في الشرق إلى جبال الأمانوس شمالا، ويعد البعض تحوطمس هذا أعظم فراعنة مصر في تاريخها القديم، وقد دام حكمه 54 سنة منها الاثنتا عشرة سنة الأولى حكمت عنه والدته الوصية على العرض لصغر سنه عندما اعتلى العرش، ومما ورد في كتاباته جدول بأسماء 118 مدينة يعتقد أنها المدن التي افتتحها في بلاد كنعان.

والظاهر أن دويلات كنعان أصبحت في معظم تلك الأدوار أشبه بمحميات

---

(1) ترجمة وتلخيص من كتاب كيللر " التوراة كتاريخ ".
Keller, "The Bible as History", PP. 15 - 19.

(2) (خر، 3: 8).
(3) (تث، 8: 8 - 9).
(4) انظر: ما يلى عن (الهكسوس).

مصرية توثقت صلاتها مع مصر باتفاقيات لحمايتها من غزوات البدو، وتدلنا المدونات المصرية القديمة على أن ملوك هذه الدويلات كثيرا ما كانوا يستنجدون بفراعنة مصر لإرسال نجدات لحمايتهم من غزوات (العبيرو) [1]، إذ عصر على عدد من الرسائل من بعض ملوك كنعان ترجع إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد بهذا المعنى.

التصوير رقم (7)
الفاتح المصرى الشهير الملك تحوطمس الثالث
(1503 - 1449 ق. م) (عن ماريسون، " التوراة صحيحة " ص 182)

ز ـ بلاد كنعان في النصوص القديمة الأخرى:

ومع أن هناك نصوصا قديمة من الكنعانيين عثر عليها في سيناء، وهى ترجع إلى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، إلا أن هذه النصوص لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر تاريخى لغموضها، لذلك تعتبر الكتابات التي عثر عليها في أوغاريث، البلدة الفينيقية الشمالية [2] والتى ترجع إلى بداية النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد، أقدم المصادر وأوثقها في بحث تاريخ بلاد كنعان القديم، ثم تليها النصوص الموآبية والأدومية والعمونية وبخاصة الفينيقية المنتشرة عن طريق التجارة خارجيا، وهى أكثر عددا ووضوحا.

فقد اكتشفت في أوغاريث مدونات كثيرة بغير اللغة الأوغاريثية منها بالأكدية

(1) انظر: ما يلى عن " العبيرو " في فصل الخامس.
(2) راجع الدكتور أنيس فريحة: " ملاحم وأساطير من أوغاريث " بيروت، 1966.

والحورية والحيثية، وهذه كشفت عن كثير من المعلومات التاريخية حول حياة الكنعانيين وثقافتهم كانت قبل اكتشاف هذه النصوص غامضة، وأهم ما عثر عليه من هذه الكتابات المجموعة الواسعة من وثائق ملوك أوغاريث التي تحتوى على مراسلات ملوكها مع ملوك الحيثيين والمصريين وغيرهم ترجع إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، هذا وفى الوثائق الملكية التي وجدت في " مارى " والمراسلات الملكية التي وجدت في " تل العمارنة " في مصر وأخبار التوراة وغيرها من المصادر البابلية والأشورية والحيثية ما يزود الباحث بالعديد من المراجع عن تاريخ الكنعانيين في عصور ما قبل حملة موسى على فلسطين [1].

(1) انظر المراجع التالية عن كنعان والكنعانين:

S.Moscati, "Ancient Semitic Civilizations", Chap. V, "The Canaanites", pp. 99 - 123; G.R. Driver "Canaanite Myths and Legends", Edinburg, 1956; W.F. Albright, "The Role of the Canaanites in the History of Civilization", 1942; Ph. Hitti, "History of Syria". Chapt VIII, "The Canaanites", pp. 79 - 96; R. Dussaud. "La Penetration des Arabes en Syria avant 1'Islam". Paris, 1955; T.H. Gaster, "Canaanites", Ency Brit, Vol IV, 1965, ed., pp. 726 - 728 (with map and vivliography); D. Diringer, "The Alphabet. Akey to the History of Mankind". 1948, 2nd. Ed., see Chap III, "Canaanite Branch." pp. 235 - 252; Z.S. Harris, "Ras Shamra: Canaanite Civilization and Language". The Smithsonian Report for 1937 (Publication 3474), pp. 479 - 502; Lods, "Israel from its beginnings of the middle of the eighth cent" (Translated by S.H. Hooke). London, 1932, See: Part I, "Canaan before the Israelite settlement", pp. 37 - 149; J.Gray, "The Legacy of Canaan". Leiden. 1957; C.H. Gordon, "Ugaritic Literature" ; R. Largement, "La Religion Cananeenne". In M Brillant - R - Aigrain, "Historie des Religions". Iv. Tournai 1956, pp. 177 - 199.

مجموعة من آثار الحضارة الكنعانية

التصوير رقم (8)

أمير كنعانى من مجدو القرن 14 ق.م

نقش يمثل الأمير جالسا على عرشه ومن حوله حاشيته: الساقى يقدم له الشراب، ضارب القيثارة يضرب على قيثارته بينما وقف حارسه الخاص على أهبة الاستعداد. في مقدمة الصورة الخدم يهيئون الشراب بينما ظهرت في مؤخرتها العربة الملكية.

التصوير رقم (9)

فتاة كنعانية من مجدو. القرن 13 ق. م

لوح تخيلى من العاج على أساس البقايا العاجية التي عثر عليها في حفريات مجدو (عن عوردن كود، " عاجيات مجدو " جامعة شيكاغو)

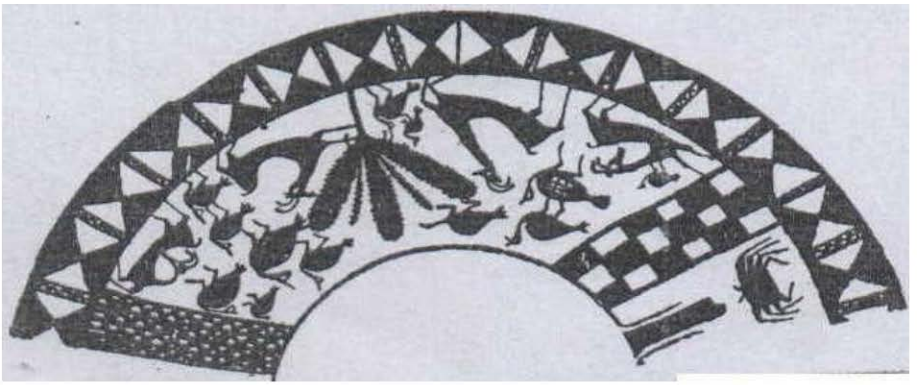

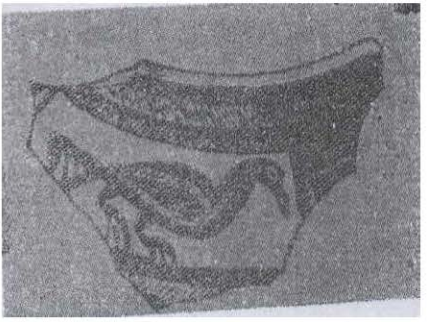

التصوير المرقمة (10، 11، 12)
نماذج من الخزف الكنعانى المبكر
الرسم 12 يعود إلى حوالى 3000 ق. م

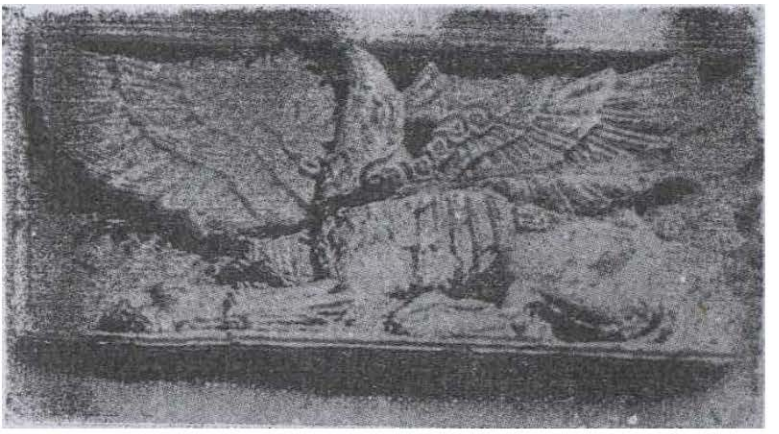

التصوير رقم (13)
لوح من العاج يمثل عقابا – من آثار مجدو – القرن 13 ق. م
عثر على هذا اللوح شبه مكتمل، عن كاتلين كينيون " آثار الأرض المقدسة "

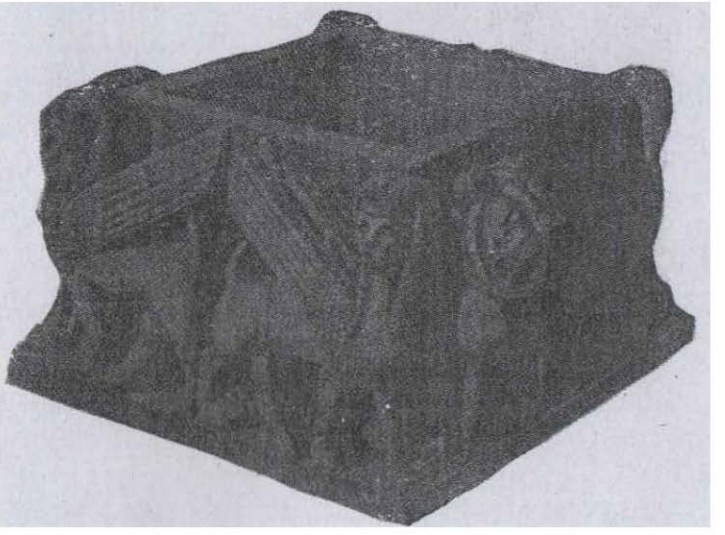

التصوير رقم (14)
علبة من العاج تحمل نقوشا بارزة تمثل " أبا هول " وبعض السباع – من آثار مجدو
القرن 13 ق. م (عن كاتلين كينيون " آثار الأرض المقدسة ")

التصوير رقم (15)

لوح من حجر البازلت يمثل معركة أسطورية بين سارق المعبد وحارسه الأسطوريين على هيئة أسد وكلب من آثار معبد الإله " ميكال "، في بيت شان - القرن 15 ق. م

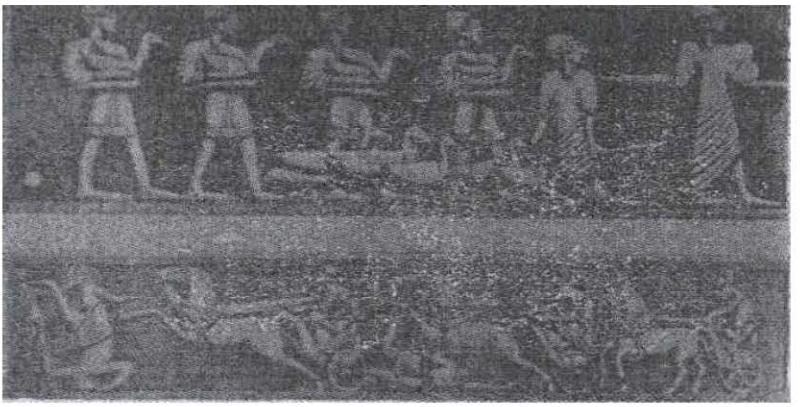

التصوير رقم (16)
نقوش على العاج - من آثار بلدة مجدو
يمثل القسم الأعلى منظر لبعض الأشخاص والأوز، ويمثل القسم الأسفل: معركة بالعربات

التصوير رقم (17)
لوح من العاج يمثل صورة " أبو الهول " الكنعانى من مجدو
(عن كاتلين كينيون، " آثار الأرض المقدسة ")

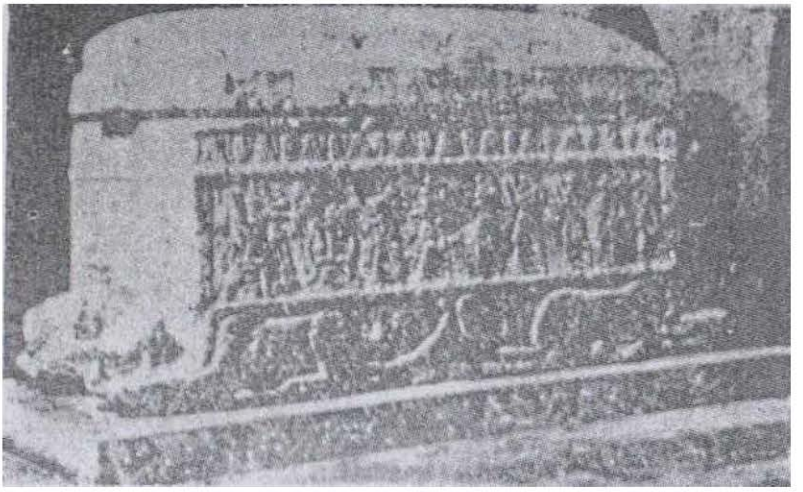

التصوير رقم (18)

تابوت حجرى لحشمان الملك أحيرام ملك بيبلوس (جبيل) يرجع تاريخه إلى حوالى **1000** ق. م

يشاهد في الواجهة الملك أحيرام على عرشه تحيط به الآلهة وهو يحمل بيده كأسا وبعض الزهور، ويشاهد أمامه خادم يحمل منديلا بيد ويطرد الذباب باليد الأخرى من فوق مائدة طعام، وهناك خادمان يحملان الطعام يتبعهما أشخاص يمارسون طقوسا دينية، وعلى هذا التابوت كتابة فينيقية بها من يحاول عزو بيبلوس وإزالة هذا التابوت بالدمار والهلاك.

التصوير رقم (19)

مسلة الإله " إيل " من أوغاريت – المتحف الوطنى بدمشق

وتمثل الإله " إيل " جالسا على عرشه وهو يتقبل هدايا ملك أوغاريت

التصوير رقم (20)

مسلة الإله " بعل " من أغاريت القرن 15 ق.م

وهى تمثل الإله يشهر بيده اليمنى هراوة ضخمة بينما يقبض باليسرى على صاعقة وتمسك يده الثالثة رأس ملك أوغاريت مشيرا بذلك إلى حمايته له وتهديد كل من يتجاسر عليه. (عن كتاب " الحضارات السامية القديمة " ص 122)

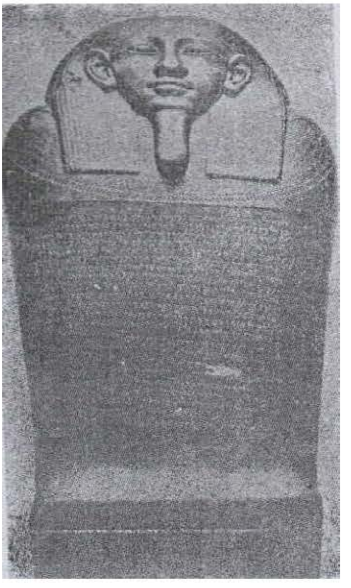

التصوير رقم (21)

تابوت من الحجر الجيرى لجثمان الملك أشمون عازار ملك صيدون في فينيقية

يرجع تاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد وهو الآن في متحف اللوفر في باريس عن حتى " لبنان في التاريخ " الطبعة الإنجليزية، ص 169)

التصوير رقم (22)
إلهة الخصب الكنعانية من آثار أوغاريت

التصوير رقم (23)
مسلة الإله " ميكال " إله بيت شان الكنعانية

عثر عليها في ملحق المعبد الكبير الذي يرجع تاريخه إلى عهد تحوتمس الثالث (1479 - 1447 ق. م) يمثل الإله يلبس تاجا مخروطيا ويرتدى زيا مصريا

وبيده صولجان (عن لودز، إسرائيل منذ البداية، ص 128).

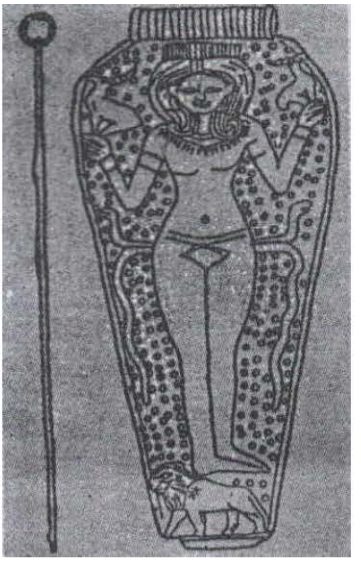

التصوير رقم (24)
آلهة الخصب الكنعانية واقفة على أسد وتصحبها حيتان

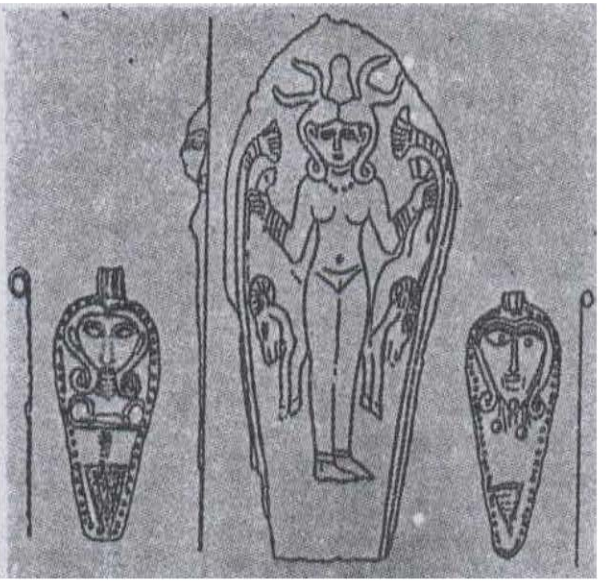

التصوير رقم (25)
أقراط ذهبية لآلهة الخصب من أوغاريت عن شافرا " نصوص مسمارية من رأس شمر -

أوغاريت " لندن 1939

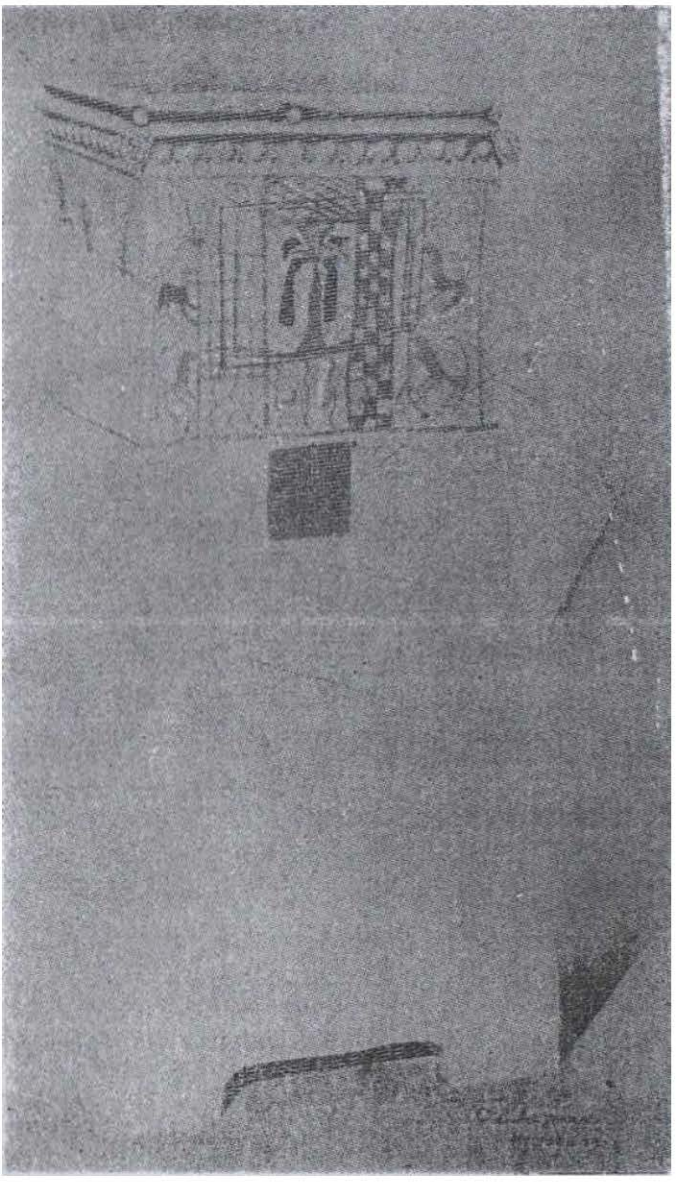

التصوير رقم (26)

محراب كنعانى

عثر على هذا النقش الكنعانى تحت أطلال قصر بلدة " مجدو " في القسم

الشمالى من كنعان يرجع تاريخه إلى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

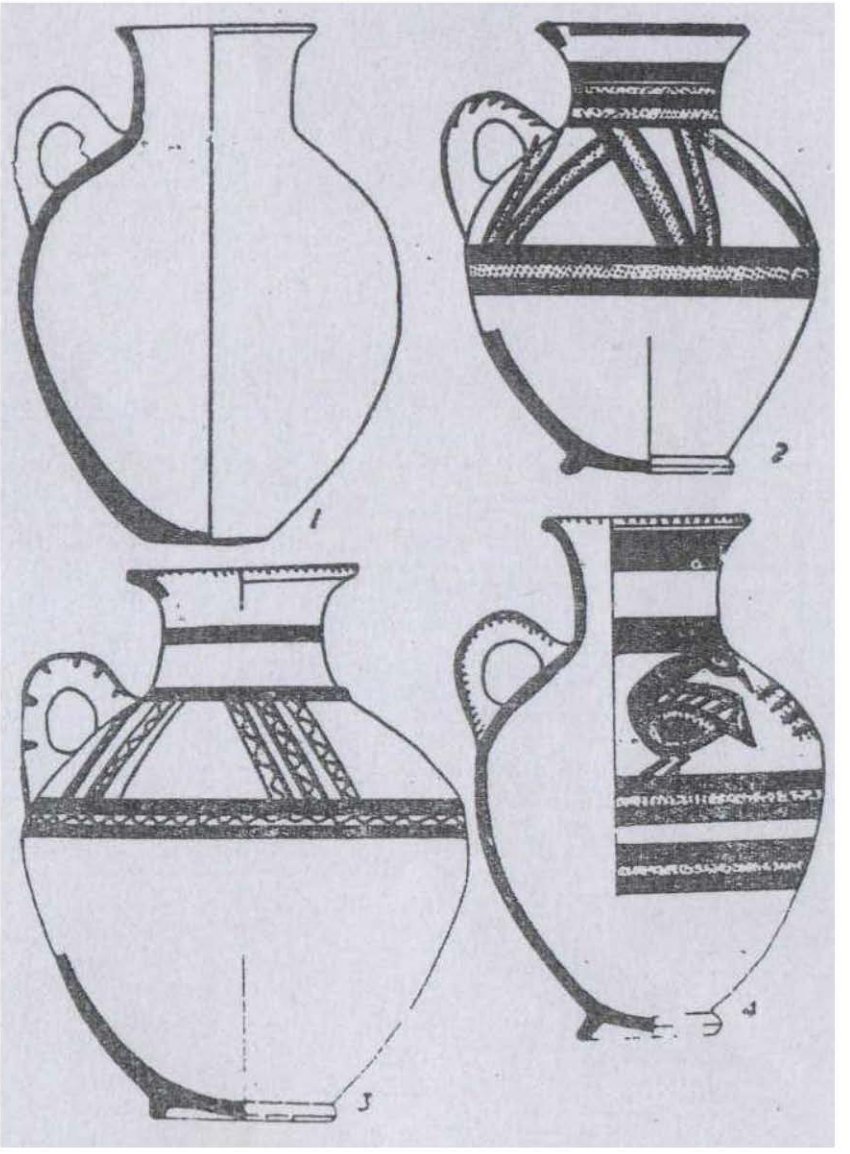

التصوير رقم (27)
نماذج من الخزف الكنعانى أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد
منقولة عن كاتبين كبينون " آثار الأرض المقدسة "، اللوحة 47

التصوير رقم (28)
كأس فينيقية من الفضة الخالصة، على الطراز المصرى

عثر على هذه الكأس التي تحمل اسم صاحبها أشمون عازار في مقبرة آل برنادينى في إيطاليا، عن هاردن " الفينيقيون " ص 179، التصوير رقم 54)

التصوير رقم (29)
كتابة فينيقية من تبة قرة " عن هاردن " الفينيقيون "، التصوير 39)

التصوير رقم (30)

مسلة ميلكياتون القرطاجنى – عن هاردن " الفينيقيون " التصوير 45

3 ـ هجرة العموريين العمالقة إلى فلسطين وسورية والعراق:

وهذه هي الهجرة الثانية الكبرى من جزيرة العرب، قامت بها الجماعات التي تسمت بالعموريين العمالقة في نفس الوقت الذي هاجر فيه الكنعانيون وربما قبلهم، فتمركزوا في بداية الأمر في الأقسام الشمالية من بلاد الشام ثم أخذوا ينتشرون في أواسط سورية وفي لبنان حتى امتدوا جنوبا إلى فلسطين، وقد أسسوا في وطنهم الجديد دولة " عمورو " أو " مارتو " في السومرية، أى بلاد الغرب، واتخذوا بلدة " مارى " عاصمة لهم. و " مارى " هذه هي المدينة العاشرة التي أسست بعد الطوفان تقع أطلالها على الضفة الغربية من نهر الفرات على مسافة حوالى 15 كيلو متر إلى الشمال من بلدة البوكمال وتعرف خرائبها اليوم باسم " تل الحريرى ".

وقد لعبت هذه المدينة دورا مهما في تاريخ الشرق الأدنى لما كانت تتمتع به من موقع ممتاز متوسط على طريق القوافل التجارية والمواصلات بين العراق وسورية وفلسطين ومصر، وهى المدينة التي مر بها سيدنا إبراهيم الخليل في هجرته من " أور " إلى " حاران " في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

أطلق البابليون تسمية " عمورو " على جميع بلاد سورية كما أطلقوا على البحر المتوسط اسم " بحر عمورو العظيم " ويرى بعض الخبراء أن العموريين كانوا قد انتشروا في جميع المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى الفرات ومن ضمنها فلسطين منذ الألف الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد [1].

ويشاهد اليوم مقابل " تل الحريرى " على الجانب الأيسر من نهر الفرات تل أثرى يسمى " تل باغوز " يرجع تاريخه إلى الألف السادسة قبل الميلاد، ومن المرجح أنه يمثل بقايا إحدى المستوطنات التي أقامها العموريون على ضفاف الفرات الشرقية بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب. ويبدو أن هذه المستعمرة السامية كانت تمارس الزراعة التي تعتمد على الرى مستمدة مياه الإرواء من الضفة اليسرى لنهر الخابور (خابور الفرات).

---

(1) أنظر:

A.T.Clay, "Amuru The Home of the Northern Semites", 1990; "The Empire of the Amorites", 1919.

وقد كشفت التنقيبات الفرنسية التي أجريت في " تل الحريرى " منذ عام 1933 عن آثار حضارة واردى الرافدين من عصور ما قبل التاريخ ومن عصر فجر السلالات في الألف الثالثة قبل الميلاد حيث وجدت تماثيل سومرية ومعبد للإلهة " عشتار ". كما كشفت عن برج مدرج وقصر عظيم من العهد البابلى القديم من القرن العشرين قبل الميلاد يحتوى على 300 غرفة وقاعة واسعة مساحتها تربو على 15 دونما عراقيا، وقد عثر فيه على مجموعة من الألواح الطينية بلغ عددها حوالى 24000 لوح، وهى تشتمل على أنواع مهمة من الوثائق والسجلات الملكية الخاصة بآخر ملك من سلالة مارى العمورية المدعو " رمزى - ليم " (1779 - 1761 ق. م). وقد كان لعثور المنقبين على هذه الألواح نتائج مهمة في الكشف عن تاريخ بلاد الشام والشرق الأدنى وعن دور العموريين في الألف الثانية قبل الميلاد.

وقد أظهرت التنقيبات الأثارية أن سلالة سومرية بزعامة لوكال زاكيزى ملك الوركاء (2400 - 2371 ق. م) حكمت في " مارى " قبيل احتلالها من قبل سرجون الأكدى (2371 - 2316 ق. م). وقد تمكن العموريون بعد سقوط الامبراطورية الأكدية (سنة 2230 ق. م) أن يتغلغلوا في سورية الوسطى وفى لبنان، ثم أسسوا بين سنة 2100 و 1800 ق. م عدة دويلات في وادى الرافدين تمتد من أشور شمالا إلى " لارسا " جنوبا، منها سلالة إيسن التي قامت على أنقاض سلالة أور الثالثة وقد ظلت هذه الدويلات مزدهرة إلى أن قضت على استقلالها سلالة بابل الأولى التي اشتهرت بإمبراطورية حمورابى صاحب الشريعة المشهورة وهى من أصل عمورى أيضا، ويرجح أن السلالة المهمة التي تأسست في بلاد آشور واشتهرت بملكها " شمسى أدد " (1814 - 1782 ق. م) أصلها من العموريين أيضا، ثم استعادت الدويلات العمورية استقلالها بعد سقوط سلالة بابل الأولى وظلت كذلك إلى زمن الإمبراطورية المصرية (1580 - 1085 ق. م)، ففى هذا العهد دخلت تحت النفوذ المصرى وهو العهد الذي بلغ فيه التنازع بين دول الشرق الأدنى أشده بين المصريين والبابليين والأشوريين والحيثيين.

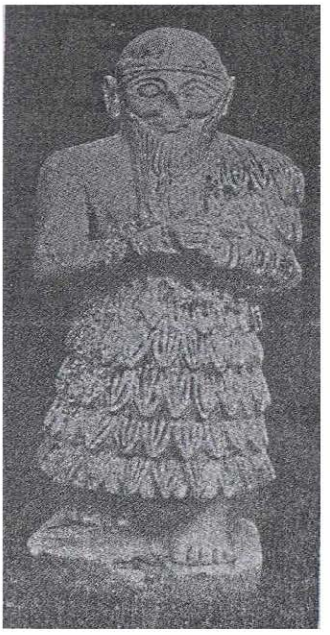

التصوير رقم (31)
الملك لانكى مارى ملك مارى العمورية (حوالى سنة 2500 ق.م)
كيللر " التوراة كتاريخ "، ص 32

وكانت لغة العموريين من اللغات السامية الغربية وهى شبيهة باللهجة الكنعانية والفينيقية الغربية، أما الألواح التي عثر عليها في قصر الملك " زمرى - ليم " فقد كتبت بالخط المسمارى وباللغة الأكدية ولكن لهجتها تميل إلى السامية الشمالية الغربية.

أما ديانة العموريين فكانت متشابهة إلى حد بعيد مع الديانات السائدة في بادية الشام وجزيرة العرب، وكان طبيعيا أن يقدس العموريين في وطنهم الجديد مصدر حياتهم ووجودهم، وهو نهر الفرات، فمن أقدس آلهتهم التي عبدوها إلهة المياه والينابيع وقد عثر على تمثالها في حفار " مارى " وهو موجود في متحف حلب (انظر التصوير رقم 32).

وتشاهد الإلهة في هذا التمثال وهى مرتدية ثوبا طويلا يستر جسمها ولا يظهر منه سوى مقدمة القدمين والثوب مموج يشير إلى تموجات الماء ومجرى

النهر، وقد مسكت الإلهة بيدها كأسا تنبجس منها المياه رمز الحياة والخصب وعلى رأسها عمامة وفى جيدها طوق وفى معصميها سواران [1]، ويعد هذا التمثال من أهم مجموعات النحت العمورى في بلاد الرافدين.

التصوير رقم (32)
إلهة المياه والينابيع العمورية من آثار بلدة مارى
(منقولة عن المتحف الوطنى بدمشق)

وكانت عبادة الماء عن طريق الآلهة معروفة منذ أقدم الأزمنة في الشرق فقد أله المصريون النيل ودعوه " أوسيرس " وعبد الساميون في العراق الإله " إيا " إله المياه واتخذوا الرافدين، دجلة والفرات شعارا مقدسا، ويتألف هذا الشعار من كأس يتدفق منها مجريان رئيسيان يتكون كل منهما من ثلاثة فروع يعتقد أنها تمثل الروافد الرئيسية الثلاثة التي تنصب في كل من نهرى دجلة والفرات، أما العين الفوّارة فهى تمثل منبع دجلة والفرات حيث كان السومريون يتصورون أن دجلة والفران ينبعان من منبع واحد (انظر التصوير رقم 33) [2].

(1) " الماء في حياتنا وتراثنا ": للمحامى عبد القادر عياش، دير الزور، 1969.
(2) انظر: " الرى والحضارة في وادى الرافدين "، (الإناء الفوار)، ص 157 - 178.

وقد عثر في حفائر " مارى " على لوح ظهر فيه نقش لزمرى - ليم آخر ملوك مارى مع إلهتين تحمل كل منهما بيدها نفس الإناء الفوار العراقى الذي ينبع منه النهران: دجلة والفرات [1].

التصوير رقم (33)

شعار الرافدين " دجلة والفرات " عند البابليين

ومن أهم ما خلده العموريون في تاريخهم القديم تأسيسهم بعد استقرارهم في العراق الإمبراطورية البابلية القديمة (سلالة بابل الأولى) التي اشتهرت بملكها السادس حمورابى صاحب الشريعة المشهورة وقد دامت ثلاثة قرون (1894 - 1595 ق. م).

(1) Hitti, "History of Syria", P. 69.

التصوير رقم (34)
أسرى عموريون أخذهم المصريون في فتوحهم للشرق، حوالى القرن 13 ق.م
(عن كتاب " قصة التوراة "، ص 182)

4 ـ هجرة الأراميين إلى سورية والعراق:

ومن الموجات السامية العربية التي أعقبت هجرة الكنعانيين والعموريين وتدفقت إلى أنحاء الهلال الخصيب موجة الجماعات التي تسمت بالأراميين نسبة إلى أرام بن سام بن نوح [1]، والمرجح أن اشتقاق كلمة إرم الواردة في القرآن الكريم من اسمهم[2]، وقد جاءت كلمة " أرام " في التوراة مضافة إلى عدة أماكن يراد بها مستوطن أو قبيلة أو أرض عالية مثل " أرام صوبة " و " أرام النهرين " و " أرام دمشق "، و " فدان أرام " الخ. [3] ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن مصطلح " أرام النهرين " أى بلاد ما بين النهرين كان يقصد به على ما ورد في التوراة الأقسام الشمالية من العراق وبالتحديد المنطقة الواقعة بين منبع البليخ أحد روافد نهر الفرات العليا وبين نهر الفرات والتي مركزها (حاران) (حران الحالية). وأول من ترجم هذا المصطلح إلى الإغريقية المؤرخ اليونانى المعروف بوليبيوس (202 - 120 ق. م) فاستعمل كلمة " ميزوبوتاميا " التي صارت تطلق

(1) (تك. 1: 22 - 23)، (1 أخ، 1: 17).
(2) طه باقر، " مقدمة في تاريخ الحضارات "، ج 2، ص 268.
(3) (2 ص م، 8: 3، 10: 6)؛ (تك 24: 10)؛ (2 صم، 8: 5)؛ (تك، 29: 4، 5)؛ (2 صم، 10: 16).

على ما يعرف اليوم بوادى الرافدين أى جميع القطر العراقى [1]، ثم أطلق الأشوريون تسمية " أرام " على الجماعات التي وجدت في تلك المنطقة، ومن ثم عمت كل القبائل التي تنتسب إلى أصل واحد [2].

وقد بدأ الأراميون يستقرون في منطقة الفرات الأوسط (الخابور - البليخ - الفرات) في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد [3]، وذلك بعد أن توغلوا في شمال جزيرة العرب وهنا نمت لغتهم وثقافتهم الخاصة بهم، وقد اقتبسوا الكثير من العموريين والكنعانيين ومن الحضارات التي جاوروها ولاسيما حضارة وادى الرافدين والحيثيين، ولكنهم حافظوا على لغتهم ولهجتهم الخاصة بهم، ثم توغلوا في أطراف البلاد فأقاموا في أواخر القرن الثانى عشر ق. م عدة ممالك وأعظمها دمشق وحماة وحلوا محل العموريين والحوريين والحيثيين في وادى نهر العاصى.

وقد عين الدكتور حتى في كتابه " تاريخ سورية " الطبعة الإنجليزية ص 162، تاريخ استيطان الأراميين في منطقة الفرات الأوسط (منطقة حران) قبل الألف الثانية قبل الميلاد، بينما يحدد الأستاذ طه باقر في كتابه " مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة " (ج 2، ص 268 - 269) بدء هجرة الأراميين على الفرات الأوسط بمنتصف الألف الثانية قبل الميلاد، ولكن إذا أخذنا برواية التوراة القائلة أن إبراهيم الخليل الذي كان ينتمى إلى العشائر الأرامية قد اتصل بهم في حران قبل ذهابه إلى فلسطين، ثم أرسل من يجئ بإحدى بناتهم ليجعل منها زوجة لابنه إسحاق، يكون الأراميون قد وجدوا في مستوطناتهم في منطقة حران قبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد لأن إبراهيم الخليل وجد في سنة 1900 - 1850 ق. م، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه الدكتور حتى. ومما يدل على أن الأراميين كانوا موجودين في هذه المناطق قبل الألف الثانية قبل الميلاد أن اسم أرام ورد في كتابة مسمارية ترجع إلى عهد الملك الأكدى نرام - سين (القرن الثالث والعشرون ق. م) بصفة (Ara - am) ثم ورد في كتابة أخرى تشير إلى مدينة أو دويلة باسم

(1) الأستاذ طه باقر: " ملاحظات في جغرافية العراق "، مجلة الأقلام، العدد 10، أيلول 1970، ص 15 - 160.

(2) الأب البير أبونا " أدب اللغة الأرامية "، ص 12 - 13.

(3) Diringer, "The Alphabet", 1948, P. 253.

أرام قرب مملكة أشنونا في جنوب العراق [1].

أ ـ القبائل الأرامية و " الأخلامو " والعبيرو " الخبيرو ":

وكان الأراميون مكونين من جملة عشائر وقبائل منهم فرع ورد اسمه بصيغة " أخلامو " وهى تسمية شاملة وردت في الكتابات القديمة لجماعة من القبائل البدوية في شمالى الجزيرة العربية، وقد أصبح الأخلامو في العهد الأخير مرتبطين كليا بالأراميين في صد الغزو الأشورى، ونظرا لشهرة هذه القبائل صار اسما كثيرا ما يطلق على جميع الأراميين. وقد ورد ذكر جماعات أخرى مع " الأخلامو " سميت بـ " الخبيرو " أو " الهبيرو " أو " العبيرو " وهى كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب الجزء الشمالى من الجزيرة العربية أيضا. وقد انضمت إلى القبائل الأرامية، وصارت هذه الكلمة بعد أن صحفت إلى عبرى وعبرانى تطلق على أتباع موسى بعد ظهورهم باعتبارهم من القبائل الرحل، لأنهم لم يكونوا قد وجدوا بعد عندما كانت هذه الكلمة تستعمل لتعنى البدو الرحل أو المهاجرين أو العابرين[2].

ويؤكد العلامة " كروهمان " في بحثه عن أصل العرب، علاقة الأراميين مع قبائل الخبيرو والعبيرو فيقول: " ومن المؤكد أن العنصر العربى البدوى في شبه جزيرة العرب، وهو على الأرجح مصطلح مرادف لتسمية " أرام " و " عبيرو " و " خبيرو " وجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين سورية وبلاد ما بين النهرين والتى تعد أقدم مركز للساميين " [3].

ويقول دايرنكر: " إن الأرامية " فرع رئيسى يرجع إلى الهجرة السامية الثالثة ذكرت في مصادر التوراة وفى الكتابات المسمارية، ويطلق اسم أرام الذي ورد في التوراة على سلالة عنصرية كما يطلق على الإقليم الذي تسكنه تلك السلالة. وجاء في جدول الأمم [4] أن أرام هو جد الأراميين وقيل عنه إنه ابن

(1) Moscati, "Ancient Semitic Civilizations", P. 168.
(2) انظر ما يلى عن " العبيرو " ومفهوم هذه الكلمة في أزمنة ما قبل بنى إسرائيل.
(3) A. Grohman, "The Arabs", The Enc: of Eslam, New ed., P. 255.
(4) (تك، ص: 10).

سام، وجاء في مكان آخر أنه حفيد ناحور أخى إبراهيم الخليل [1].

ويقال عن يعقوب إنه أرامى نائه، وعن أمه وزوجاته أنهن أراميات، وقد وردت الإشارة إليهم في رسائل " تل العمارنة " في القرنين الخامس والرابع عشر قبل الميلاد باسم أخلام أو أخلامو أى الأحلاف الذين يظن أنهم هم أحلاف أرام المذكورين في وثائق القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وهم يسمون في المصادر الأشورية " أرومو " و " أرامو " وجمعهم " أريمى " [2].

ولقد ورد في المدونات المصرية منذ السلالة الأولى (نحو 3100 ق. م) ما يشير إلى هؤلاء الرحل باسم " ستيو " وقد أطلق الأكديون عليهم اسم " سوتيو " أو " سوتو ". وقد أخذت هذه التسميات تدل في وثائق الأشوريين المتأخرة على الرحل بوجه عام، ثم أطلق اللقب على العموريين في مارى والأراميين في حران على حد سواء، وقد ورد ذكر الأراميين في النصوص العمورية من مارى وفى الألواح التي عثر عليها في أوغاريت. ومنذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد صار يطلق لقب " أخلامو " على هؤلاء الرحل وقل تدريجيا استعمال تسمية " سوتيو " حتى زال نهائيا بدليل أن الملك الأشورى تفلت فلاسر الأول (1116 - 1090 ق. م) كان يخلط بين الأخلامو والأراميين [3].

ب ـ اتساع تجارة الأراميين وانتشار لغتهم في الشرق:

وقد ساعد موقع مناطق الأراميين على توسيع نطاق متاجرهم فاحتكروا التجارة كما احتكروا طرق المواصلات المؤدية إلى أشور شرقا وإلى المدن الفينيقية غربا وإلى آسيا الصغرى شمالا ومن هذه وتلك إلى المدن المصرية. وأمكن بفضل تدجين الجمل العربى تيسير القوافل تيسيرا كبيرا فأقيمت على أطراف البلاد مراكز للتجارة كانت أشهرها " تدمر " و " الحضر ".

وفى تعليق للمرحوم العقاد في ذلك يقول: " كان للأراميين بطون في العراق وبطون أخرى في سيناء وفلسطين فكانوا ينشرون ما اقتبسوه من وادى الرافدين ووادى النيل على السواء، وكان الإغريق على اتصال بهم في الموانئ الشرقية من آسيا الصغرى على تخوم سيناء فنقلوا عنهم وسائل الحضارة والتجارة قبل أن

(1) (تك، 22: 21).

(2) Diringer, "The Alphabet - Akey to the History of Mankind", 2nd ed:, 1948, p: 253.

(3) الأب ألبير أبونا، " أدب اللغة الأرامية "، ص 12.

يهتدى إليها أبناء القارة الأوربية بزمن طويل " [1].

وقد انتشرت مع التجارة الأرامية اللغة الأرامية انتشارا واسعا، واللغة الأرامية من فروع كتلة اللغات الغربية التي انتشرت شمال غربى ما بين النهرين، وقد أصبحت لغة أقطار الشام وتغلغلت في بلاد فارس وانتشرت بين الشعوب المجاورة لها، ثم امتدت إلى وادى النيل وآسيا الصغرى وشمال جزيرة العرب حتى حدود الحجاز، وبقيت دهورا طوالا اللغة الرسمية والتجارية للأمم الحية في القرون الأولى قبل الميلاد في بابل وأشور وفارس ومصر وفلسطين، وكانت الأرامية لغة السيد المسيح والحواريين وبها كتب الإنجيل على ما يرجح، وإن الكتابات الدينية لمختلف الكنائس الشرقية دونت بلهجات مشتقة من الأرامية وبأقلام مأخوذة من الأبجدية الأرامية [2]، وقد حلت اللغة الأرامية محل الكنعانية وظلت اللغة السائدة في البلاد إلى الفتح العربى في القرن السابع بعد الميلاد عندما أخذت اللغة العربية تحل محلها. وانقسمت اللغة الأرامية بمرور الزمن إلى عدة لهجات يمكن حصرها بفرعين: الفرع الشرقى في وادى الفرات وتمثله اللهجة المندائية والسريانية ولهجة الحضر، وتمثل الفرع الغربى أرامية التوراة والإنجيل والترجوم (التفسير والشرح) واللهجات الأرامية في مملكة شمال وفى حماة وتدمر وبلاد النبط.

والدليل على انتشار اللغة الأرامية في جميع الشرق الأدنى: أن تسمية " أراميين " صارت تشمل جميع القبائل الساكنة قديما في البلاد الفسيحة الواسعة والمحدودة ببلاد الفرس شرقا والبحر المتوسط غربا وبلاد الأرمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالا وحدود جزيرة العرب جنوبا والتى كانت تعرف قاطبة ببنى أرام والأراميين مع أن بعض هذه القبائل كانت تسمى بأسماء خصوصية كتسمية أهل بابل وما يجاورها من قبائل بالكلدانيين وسكان مملكة أشور بالأشوريين وتسمية أهل الشام بالأدوميين، ولكن تسمية الأراميين كانت تشملهم جميعا، وكانت كل هذه البلاد تتكلم بالأرامية، كما أن تسمية طى مثلا وقريش وحمير وكنانة لا تخرج هذه القبائل من كونهم عربا [3].

---

(1) العقاد، " أثر العرب في الحضارة الأوربية "، ص 23.

(2) Diringer, "The Alphabet", P. 235.

(3) القس يعقوب أوجين حنا الكدانى، " دليل الراغبين في لغة الأراميين "، الموصل، 1900، ص 7.

ولم يقتصر الأمر على انتشار اللغة الأرامية وحدها إذ انتشر استعمال الحروف الأبجدية التي كتب بها الأراميون لغتهم بعد أن أخذوا هذه الحروف من الفينيقيين فاقتبسها أقوام عديدة في آسيا في كتابة لغاتها، وقد أخذ اليهود خطهم الذي طبعوا به كتب التوراة من الخط الأرامى بين القرنين السادس والرابع ق.م، كما أن العرب الشماليين أخذوا خطهم من الخط النبطى الذي هو شكل من أشكال الخط الأرامى، وهذا هو الخط الذي كتب فيه القرآن الكريم وتطور عنه الخط العربى الحديث، كما أخذ الأرمن والفرس والهنود خطوطهم من أصول أرامية، وهكذا يكون الخط الفينيقى قد انتقل على أيدى الأراميين إلى نصف العالم الشرقى، وقد تفرع من القلم الأرامى أقلام عديدة متشابهة، المعروف منها الآن القلم السامرى والتدمرى والنبطى ومن الأخير نشأ القلم الحميرى الغربى الذي منه تولد القلم الكوفى ومن هذا نتج القلم النسخى.

ج ـ نشأة اللغة الأرامية وتطورها:

إن أقم كتابة أرامية معروفة عثر عليها في شمال سورية وهى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد وفى جملتها كتابة أبجدية من تل حلف (كوزان) [1] ويليها في القدم الكتابة التي وجدت في منطقة دمشق على بعد أربعة أميال ونصف ميل شمالا وهى تحمل اسم الملك بنهدد الأول، وترجع إلى حوالى سنة 850 ق. م، وهناك الكتابة التي اكتشفت على مسلة " زاكر " ملك حماة والتى رجع أولبرايت تاريخها إلى سنة 775 ق. م، كما أن هناك كتابات أرامية قديمة عثر عليها في دمشق وفى سمأل (زنجرلى) وفى المدن الفينيقية، وهذه ترجع إلى الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والخامس قبل الميلاد [2]، وهناك كتابة أرامية مدونة على ورق البردى وجدت في مصر وهى ترجع إلى سنة 505 ق.م [3]، وفى هذه النصوص القديمة يبدو التطور واضحا من اللغة الكنعانية إلى اللغة الأرامية.

(1) R.A Bowman, "The Old Aramaic Alphabet of Tell Halaf", Amer. Journal of Semitic Languages, Vol. LVIII (1941), pp. 359 - 362; also: "Journal of Near Eastern Studies", Vol. VII (1948), p. 71.
(2) Hitti, "History of Syria", pp.. 169 - 170.
(3) Diringer, "The Alphabet", P. 255.

المرتسم رقم (6)

إن الخط الذي اقتبسه الآراميون الأولون من جيرانهم الكنعانيين اصبح مصدرا لمعظم الكتابات الحالية، وانتشرت إحدى صيغه في آسيا الصغرى ومنها انتقلت إلى بلاد اليونان حيث أعطيت الأبجدية اليونانية عدة فروع في أوروبا وفي مصر، وهناك صيغة أخرى انبثقت منها الكتابات البهلوية في إيران الوسطى وقد تشعب منها عدة فروع ثم ظهرت صيغة ثالثة منها الكتابة الأرمنية التي منها جاءت الكتابات الجورجية والقفقاسية، وعن صيغة خامسة تحت الكتابة العبرية المربعة والخطان السامري والنبطي ومن هذا الأخير جاء الخط العربي بأشكاله العديدة في الفارسية والتركية والأوردية والمالوية، وقد تفرعت الكتابة الهندية العربية أيضا من إحدى صيغ الكتابة الآرامية " أدب اللغة الآرامية "، تأليف الأب البير أبونا، بيروت، 1970، ص26، 27.

ونظرا للدور الذي لعبته اللغة الأرامية ذات الأصل العربى السامى في نشر الثقافة السامية بوجه عام لفترة تربو على 17 قرنا من الزمن وذلك بين القرن الحادى عشر قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد لابد من عرض نبذة عن نشأتها وتطورها في مختلف مراحل انتشارها.

يجمع علماء اللغة على أن الأراميين تعلموا من الكنعانيين فن الكتابة وحاولوا استعمال اللغة الكنعانية في كتاباتهم " غير أنهم كشفوا عن ذواتهم باستعمالهم تعابير أرامية، فسرعان ما تخلو عن الكنعانية وأخذوا في استعمال لغتهم الخاصة " [1]، وقد تكاملت اللغة الأرامية القديمة هذه في شمال سورية في الفترة بين القرنين الحادى عشر والثامن قبل الميلاد وهى الفترة التي ازدهرت فيها الدول الأرامية منتهزة فترة ضعف الإمبراطورية الأشورية لمواصلة نموها وانتشارها، إلا أن هذا الازدهار السياسى الذي تمتعت به الدول الأرامية في هذه الفترة لم يدم طويلا إذ سرعان ما استعاد الأشوريون قوتهم وراحوا يهدمون معاقل الأراميين الواحد بعد الآخر.

ولم ينته القرن الثامن قبل الميلاد حتى قضى على استقلال الدويلات الأرامية، ولكن التدهور السياسى لم يقض على الثقافة الأرامية بل على عكس ما كان يتوقع فقد أخذ المستعمرون أنفسهم باللغة الأرامية التي أخذت تنتشر انتشارا سريعا حتى تبنتها أقوام كثيرة وصارت تحتل المكانة الأولى بين سائر اللغات في العلاقات الدولية، وذلك لسهولة أبجديتها، واستمرت الأرامية تزدهر في العهد البابلى الحديث (626 - 539 ق. م) وعلى أثر الغزو الفارسى على بلاد الشرق (539 - 331 ق. م) انتشرت اللغة الأرامية بصورة واسعة فامتدت من فارس إلى البحر المتوسط حتى أصبحت اللغة الرسمية في كثير من البلدان بين الفرات والحدود المصرية، ثم امتدت شطر نواحى آسيا الصغرى وشمال الجزيرة العربية حتى احتلت في أوج ازدهارها وانتشارها معظم أجزاء الشرق الأوسط بل تعدته إلى الشرق الأقصى وبلغت بلاد الهند والصين. ولما كانت العبرية مشتقة من الأرامية فقد تغلبت الأخيرة على العبرية وحلت محلها في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، هذا مع العلم أن بعض أجزاء العهد القديم دون من أول الأمر باللغة الأرامية [2].

(1) الأب ألبير أبونا، " أدب اللغة الأرامية "، ص 18 - 19.
(2) انظر ما يلى في الفصل الثالث، " التوراة والديانة اليهودية "..

وقد جابهت اللغة الأرامية فترة عصيبة في العهد اليونانى (331 - 64 ق. م) بعد أن أخذت الثقافة اليونانية تفرض نفوذها في بلاد الشرق غير أنها صمدت في وجه هذا التيار وظلت سائدة في الحضر رغم مظاهر الحضارة اليونانية الرومانية البادية في أطلالها اليوم وعوضت الأرامية ما فقدته في العهد اليونانى إذ بسطت نفوذها في البلاد العربية حتى تداولها الأنباط والتدمريون حتى العهد المسيحى، وفى فلسطين تمسكت بها الجماعات التي ناهضت الثقافة اليونانية [1] ثم استعادت اللغة الأرامية مكانتها في عهد الاحتلال الرومانى لاسيما منذ انتشار المسيحية باعتبارها لهجة مسيحيى فلسطين، وهكذا فقد حافظت هذه اللغة على نفوذها زمانا طويلا إلى أن حلت محلها اللغة العربية في القرن السابع بعد الميلاد.

وقد ظهرت مجموعتان كبيرتان من اللهجات الأرامية انبثقتا من اللغة الأرامية القديمة، المجموعة الغربية وكانت تشمل فروعا عديدة هى النبطية والتدمرية والأرامية اليهودية الفلسطينية التي كتب بها تلمود أورشليم والسامرية والأرامية المسيحية، والمجموعة الشرقية وهى تشمل اللغة السريانية الرهاوية [2]، وهى المعروفة بالكلدانية ولغة التلمود البابلى واللهجة المائدية ولهجة

(1) " أدب اللغة الأرامية "، ص 21.

(2) لقد أطلق لقب السريان على الأقوام الناطقة باللغة الأرامية التي اعتنقت الديانة المسيحية وظل لقب " الأراميين " يطلق على الفئات التي بقيت على الوثنية. أما الرها فهى المدينة التي شيدها سلوقس نيقاطور سنة 304 ق. م، وفى نحو سنة 132 ق. م استقرت قبيلة أرامية أو نبطية في هذه المنطقة وأسست دويلة فيها واتخذت مدينة الرها عاصمة لها، وقد أطلق السلوقيون لقب أديسا على الرها كما يرى البعض، وقد سماها الأتراك أورفة في القرن الخامس عشر وهى تقع الآن ضمن الحدود التركية، كانت الرها مدينة مسورة محصنة لا يمكن الولوج إليها إلا بستة أبواب، وتكثر المياه والينابيع في المدينة فتؤلف عدة أنهر تصب في نهر البليخ أحد روافد الفرات، دمرها الفيضان عدة مرات كما دمرتها الزلازل سنة 679، 718 م، وقد لعب الصراع بين الفرس والرومان دورا في تاريخ الرها السياسى، فقد فرض الفرنسيون سيطرتهم عليها فترة من الزمن ثم استعادها هرقل سنة 625م ولم تبق في حوزته أكثر من 12 سنة، وأخيرا فتحها المسلمون مع بلاد ما بين النهرين سنة 637م، ولم يتخلوا عنها إلا مدة قصيرة (1097 - 1146م)، حينما جعلها الصليبيون عاصمة لمملكتهم في الشرق، وقد أصبحت الرها مركزا هاما للنصرانية في القرن الثالث الميلادى حيث غدت مهدا للغة وأدب الأراميين وبقيت مدينة مسيحية في ظل الأتراك.

الحضر، وقد انقرضت هذه اللهجات في حين كتب اللغة الرهاوية البقاء.

الأرامية الغربية:

كانت الأرامية الغربية قد استقرت في سورية وفلسطين، ولما عاد المسبيون من بابل إلى فلسطين كانت هذه الأرامية وليس العبرية هى اللغة المحلية التي يفهمها الجميع، لذلك فإن هؤلاء المسبيين لم يفهموا كتاب الشريعة الذي قرأه عزرا بالعبرية لذا فإن مترجميه " قرؤوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة " [1]، وكذلك فإن خصوم المنفيين العائدين خاطبوا ملك الفرس بهذه اللغة الأرامية وتسلموا جوابه بها أيضا [2]، " وقد يكون سفر دانيال بكامله كتب باللغة الأرامية ثم نقلت بدايته ونهايته إلى العبرانية لتيسير تنسيقه في مجموعة الكتب المقدسة. أما كتب العهد القديم التي جاءت بالأرامية فهى عزرا ودانيال وأرميا (وقليل) من سفر التكوين " [3].

وتتميز المجموعة الغربية بأربع لهجات هى:

أولا: اللهجة الأرامية اليهودية الفلسطينية، وقد ظهرت هذه اللهجة بالكلمات الأرامية والتعابير الواردة في يونانية العهد الجديد، وهى نفس لهجة (أرامية الجليل) التي نطق بها السيد المسيح ورسله وقد كتب بها التلمود الفلسطينى.

ثانيا: اللهجة الأرامية السامرية، وهى لهجة قريبة جدا من لهجة أرامية الجليل وقد كتبت بها بعض القطع الطقسية وأناشيد وقصائد وقد حلت العبرية محلها بعد الفتح الإسلامى، وكانت تكتب هذه اللهجة بالأبجدية الغربية وهى تطور محلى للخط الكنعانى القديم.

ثالثا: أرامية فلسطين المسيحية، وهى لهجة المسيحيين الأولين في فلسطين، ولما كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للديانة المسيحية فقد ترجم كتاب العهد الجديد إليها مع النص الأرامى ماعدا إنجيل متى الذي فقد نصه الأصلى باللغة الأرامية وبقيت ترجمته اليونانية، ثم قامت الجماعات التي انتحت جانب البيزنطيين بترجمة معظم النصوص الدينية من اليونانية إلى لهجتهم التي صارت تعرف بأرامية فلسطين المسيحية وهذه هى نفس اللهجة التي كان المسيحيون

(1) (نح، 8: 8).
(2) (عز، 4: 7).
(3) " أدب اللغة الأرامية "، ص 21.

يستعملونها في مصر.

رابعا: الأرامية الغربية الحديثة، وهذه اللهجة هى التي تعرف بـ " السورت " وما يزال بعض المسيحيين في القرى الواقعة شمال شرقى دمشق يتكلمون بها وقد خالطتها اللغة العامية الدارجة فتأثرت إلى حد بعيد في ألفاظها باللغات التي سادت تلك المنطقة، ومازالت هذه الأرامية مستعملة في أربع قرى واقعة في الشمال الشرقى من دمشق وهى: " معلولا " و " بخعة " و " جبعدين " و " صيدنايا ". ومع أن هذه اللهجة وليدة الاحتكاك بين اللهجتين الغربية والشرقية فإنها تعتبر من اللهجات الشرقية (انظر ما يلى عن الأرامية الشرقية) إلا أنها تعد بقية حية للأرامية.

2 – الأرامية الشرقية:

أما المجموعة الشرقية من اللغة الأرامية فقد نشأت عند الأراميين الذين نزحوا إلى منطقة دجلة والفرات فكوّنوا لهجاتهم الخاصة في مستوطناتهم الجديدة وامتدت هذه اللهجات حتى بلغت جبال أرمنيا وكردستان، وتتميز هذه المجموعة بأربع لهجات أيضا وهي:

أولا: الأرامية اليهودية – البابلية:

وقد ظهرت هذه اللهجة في الفترة ما بين القرنين الثانى والسابع للميلاد في التلمود البابلى وفى الوثائق الأخرى التي تعود إلى هذه الفترة، ومن خصائص هذه اللهجة اختلاف صيغتها شأنها شأن الأرامية اليهودية الفلسطينية التي تتبع الطريقة المصطلحة لدى الكهنة الذين كانوا يتداولونها.

ثانيا: اللهجة المائدية:

وهذه اللهجة ظهرت عند المانديين في العراق فصارت لهجة أدبهم الدينى، ويعتقد أن هذه اللهجة تطورت محليا من الأرامية القديمة وقد تكون صيغة صافية من الأرامية الشرقية غير المتأثرة بالعبرانية، وقد ظهرت في وقت متأخر فطرأ عليها تغيير لفظى كبير متأثرة باللغة العربية.

ثالثا: اللهجة السريانية:

وهى التي أصبحت لهجة الأرامية المسيحية الشرقين بعد أن اتخذتها المسيحية لغة الدين والآداب، لذلك أصبحت من اللهجات ذات الشأن فازدهرت في منطقة الرها الأرامية (منطقة أورفة حاليا) التي أصبحت مركزا للنصرانية في

القرن الثالث للميلاد. وقد كان الفضل للمجادلات العقائدية في الشرق وللانعزال الذي سببته تلك المجادلات بين الفئتين الشرقية والغربية في تطور هذه اللهجة وصقلها وإغناء مفرداتها وضبطها لتكون قادرة على التعبير عن الحاجات اللاهوتية والفلسفية والعلمية، وهكذا فقد أخذت الاختلافات اللفظية والكتابية تظهر واضحة منذ نهاية القرن السادس الميلادى حتى تم انقسام اللغة الأرامية في اللفظ والخط إلى أرامية غربية وأرامية شرقية، وقد انتشرت هذه اللهجة في البلاد الفارسية ومنها امتدت إلى البلدان الشرقية ثم إلى الشرق الأقصى إلى الصين والهند وما زالت متداولة في الهند لدى بعض السريان كلغة طقسية، ودخلت البلاد العربية ومنها مصر وكان تأثيرها كبيرا على لغات كثيرة كالعربية والأرمنية والإيرانية، ثم اندحرت بعد الفتح الإسلامى أمام اللغة العربية ولكنها ظلت لغة أدبية حية حتى القرن الرابع عشر للميلاد ولم تزل لغة طقسية لدى الكنائس السريانية الشرقية والغربية.

رابعا: السريانية الحديثة (السوادية):

وهذه اللهجة الأرامية مازالت تتكلم بها الجماعات المسيحية القاطنة في جبال كردستان والقرى المسيحية الواقعة في شمال العراق وعلى الضفاف الشرقية من بحيرة أورمية وجبال طور عبدين، وقد طرأ عليها مثل جميع اللهجات الأرامية الباقية إلى الآن، تغيير كبير في اللفظ وتأثرت بالظروف وباللغات المجاورة كالعربية والتركية والفارسية والكردية فسادت في هذا المضمار لهجة أرامية.

وقد ظهرت عدا اللهجات الأرامية التي تقدم ذكرها لهجة رسمية انتشر تداولها دوليا في الوثائق الرسمية في مختلف المناطق الأشورية، ثم تبنتها الإمبراطورية الفارسية بدورها كلغة رسمية في الدوائر الحكومية، ففى العهد الأشورى (1100 - 612 ق. م) انتشرت الأرامية الرسمية انتشارا واسعا حتى أصبح المشرفون على الشؤون الإدارية يتقنونها أكثر من الأكدية وقد امتد تداولها في الأقطار الأخرى حيث صارت الأرامية التجارية أساسا للأرامية الرسمية [1].

د ـ الديانة الأرامية:

كانت ديانة الأراميين قائمة على عبادة عدة آلهة من أهمها الإله " حداد "، وهو في الأصل إله الزوابع والعواصف، وكان هذا الإله يعبد في كركميش

(1) لقد اعتمدنا في عرض هذه النبذة عن تاريخ اللغة الأرامية على كتاب الأب ألبير أبونا، " أدب اللغة الأرامية " وهو يعد أحسن ما كتب في تاريخ الأدب الأرامى.

(جرابلس)

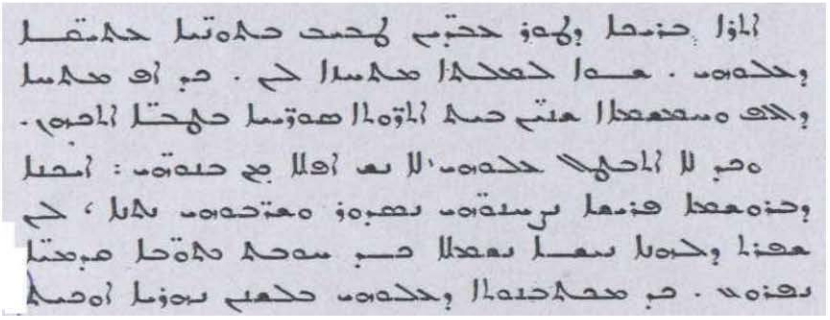

التصوير رقم (35)

نموذج من كتابة باللغة الآرامية، وهذه اللغة ما تزال إلى اليوم اللغة الطقسية لمعظم البلاد الشرقية أي للسريان الشرقيين وهم الكلدان والسريان الغربيين والموارنة

التصوير رقم (36)

أحد النقوش، التي كانت تزين قصر الملك الأرامى " كبارا " في جوزانا (تلف حلف)
(القرن 9 ق. م)

وفى حلب وفى دمشق، وقد أضيف اسمه إلى أسماء ثلاثة من ملوك دمشق، وفى سمأل (زنجرلى) وقد كان للإله " إيل " عند الأراميين نفس المكانة التي يتمتع بها عند الكنعانيين، فقد أضيف إلى اسم أحد ملوك أرباد المسمى " متى "

فأصبح " متى - إيل " وهو الذي عقد معاهدة دفاع مشترك مع الملك الأشورى نيرارى (754 - 745 ق. م)، فلم تكن الديانة الأرادية لتختلف إجمالا عن المعتقدات والتقاليد السائدة في تلك الأزمان بين ثقافات الأقوام المجاورة في كنعان وفى العراق وفى آسيا الصغرى وفى الجزيرة العربية.

هـ - " القبائل الأرامية " والعرب البائدة ترجع إلى أصل واحد:

يؤكد المؤرخون العرب أن القبائل الأرامية ترجع إلى الأصل العربى فهى والعرب البائدة أو العاربة من أصل واحد، ولذا كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعا إلى إرم ويسمونها بالأرمان، فقد ذكر حمزة الأصفهانى في كتابه " تاريخ سنى الملوك ": " أن العرب العاربة عشرة، عاد وثمود وطسم وجديس وعماليق وعبيل وأميم ووبار ورهط وجاسم وقحطان، فكانت هذه الفرق تؤرخ بسنى إرم إلى أن بادت كلها الواحدة أثر الأخرى.

وبقى منهم بقايا يسيرة وكانوا يسمون الأرمان [1]، وقد ذكر المسعودى عن الأرمان أنهم إنما سموا كذلك لأن عادا لما هلكت قبل ثمود إرم فلما هلكت ثمود قيل لبقايا إرم أرمان [2].

ويصف ابن خلدون في " المقدمة " العرب العاربة والعرب البائدة باعتبارهما مصطلحين لمعنى واحد فيقول: " إن العرب العاربة شعوب كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت وحضور والسلفات، وسمى هذا الجيل " العرب العاربة " إما بمعنى الرساخة في العروبة كما يقال ليل الليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها، وقد تسمى البائدة أيضا بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم " [3].

ومما يؤكد أن الأراميين عرب وكانوا يسمون كذلك أن الملك الأشورى أسرحدون (668 - 625 ق. م) يشير في كتاباته إلى أن الملك حزائيل ملك العريبى (العرب) جاء خاضعا إلى نينوى وهو يحمل معه جزية كبيرة [4].

---

(1) طبعة بيروت، 1961، ص 105.

(2) " التنبيه والإشراف "، الطبعة الأوربية، ص 78 - 79. انظر أيضا كتاب " مروج الذهب "، طبعة دار الأندلس، 1965م، ج1، ص 52، 53.

(3) طبعة بولاق سنة 1284هـ، ج2، ص 16 و 19 و 71 و 259.

(4) Rogers, "Cuneiform Parallels ect", PP. 353 - 359.

والمعلوم أن حزائيل اسم أرامى وهو بالطبع غير الملك حزائيل الأرامى الشهير ملك دمشق الذي استولى على معظم أملاك إسرائيل وتمكن من صد هجوم الملك شلمنصر في سنتى 842، 838 ق. م.

ويقول الدكتور هوميل في كتابه " التقاليد العبرانية القديمة ": إن الأراميين الذين يرجعون إلى أقدم الأزمان والذين ورد ذكرهم في الكتابات القديمة كانوا ينتمون إلى العرق البدوى الخالص وهم يحملون نفس الأسماء التي نجدها في التسميات العربية، لذلك فإننا لا تكون قد جازفنا في الكلام عندما نؤكد أن الأراميين في الألف الثانية قبل الميلاد بل وحتى في العصور التالية التي تمتد إلى زمن ازدهار الامبراطورية الأشورية كانوا هم والشعب العربى العظيم شعبا واحدا من عنصر واحد متماسك الأجزاء [1].

كما يشير العلامة " كروهمان " في بحثه عن تاريخ العرب إلى أن الأراميين الذين تدخلوا في شئون " بيت زمانى " في أعالى الفرات سنة 880 ق.م وساعدوا أهلها على طرد معتمد الملك الأشورى " أشور ناصربال الثانى " (884 - 859 ق. م) هم أسلاف العرب [2].

ومن الكتاب العرب الذين يؤيدون هذا الرأى المرحوم الأستاذ العقاد الذي يقول: " إن الثقافة الأرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها إلى عنصرها، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة إلى أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى وكل ما استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية " [3]، لذلك يجب أن تحتل القبائل الأرامية مكانة متميزة في تاريخ العرب قبل الإسلام لأنها تمثل الثقافة العربية القديمة وخاصة أن النبى إبراهيم الخليل هو منهم، ففى حوالى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد نزحت بعض الأسر الأرامية إلى جنوب العراق واستقرت في مناطق بابل فكان إبراهيم الخليل من ذرية هذه الأسر ومن أمرائها [4].

و - موجز تاريخ الأراميين السياسى:

بلغ الأراميون أوج اتساعهم وسلطانهم السياسى في القرنين الحادى عشر

(1) F. Hommel, "The Ancient Hebrew Tradition", PP. 202 - 203.
(2) Encyclopedia of Islam, N.E, P. 524.
(3) العقاد، " الثقافة العربية " ص 20.
(4) انظر ما يلى في الفصل الخامس " عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب "..

والعاشر قبل الميلاد مغتنمين فترة ضعف الإمبراطورية الأشورية في أعقاب حكم تجلات بلاسر الأول (1115 - 1077 ق. م) من جهة وبداية تقهقر النفوذ المصرى في عهد رغمسيس الثالث (1198 - 1167 ق. م) من الجهة الأخرى، ثم تبدد سيطرة الحيثيين والميتانيين في شمال سورية وكذلك زوال حكم الميدين في الغرب فأقاموا بقوة السلاح، سلسلة من الممالك الصغيرة في سورية منها: " أرام النهرين " [1]، و " فدان أرام " و " أرام دمشق "، و " أرام صوبا " في البقاع، و " أرام بيت رحوب " جنوبى " أرام صوبا " عند منعطف نهر الليطانى. " أرام معكة " (مقاطعة دان) و " جشور " بين اليرموك ومقاطعة دمشق، و " بيت أغوشى " في حماه وعاصمتها " أرفاد " و " بيت بخيانى " ومركزها جوزان (تل حلف حاليا) هذا عدا دويلتى " حلب " و " كركميش " (جرابلس حاليا).

وفى الشمال الغربى من سورية أقام الأراميون دولة في قليتية هى دولة " سمأل " وقد سماها الأراميون " يعودى " مركزها مدينة " سمأل " تقع أطلالها اليوم عند جبل أمانوس غربى عينتاب في تركيا وتعرف باسم " زنجرلى " ومن ملوكها الذين ورد ذكرهم " شعيل " و " كيلامو " و " حيانى " و " فنامو " و " بار - ركوب " ومن آثارها سور حصنها الذي ما يزال ماثلا للعيان (انظر التصوير رقم 37). ثم غزا الأراميون العراق فأسسوا فيه عدة دويلات منها دويلة " بيت عدينى " ومركزها في " بورسيبا " وكان مركزهم في منطقة بابل حيث حكمت سلالات بابلية عديدة في فترات متواصلة بين منتصف القرن الثانى عشر والقرن السادس قبل الميلاد، وكان أول من برز من ملوكهم " أداد - بلادان " وهو من سلالة بابل الرابعة استولى على عرش بابل وحكم بين سنة 1067 - 1047 ق. م.

(1) أشارت التوراة على أن أحد ملوك أرام النهر بين المدعو " كوشان بن رشعتايم " هاجم بنى إسرائيل في عهد القضاة حوالى (1125 - 1025 ق.م) واستعبدهم ثمانى سنوات، راجع (قض، 3: 8).

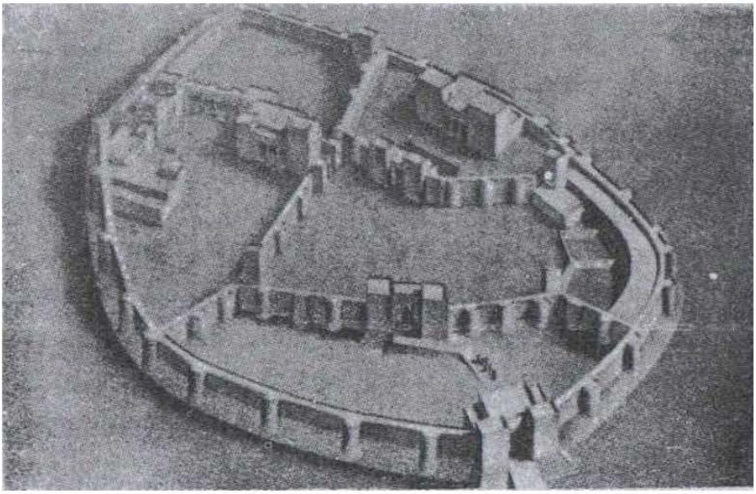

التصوير رقم (37)
حصن سمال الأرامي في شمال – غرب سورية – صورة تخيلية على أساس البقايا المكتشفة

وفي ساحل الخليج في جنوبي العراق أسس الأراميون عدة دويلات أهمها دولة " بيت ياكيني " وقد عرفت سلالة ملوكهم بسلالة القطر البحري (أمراء الخليج) وقد لعب أحد ملوكهم المسمى " مردوخ بلادان " وهو من سلالة بابل العاشرة، دورا في المعارك التي خاضها مع الأشوريين، ففي بداية عهد سرجون الثاني (722 - 705 ق. م) استولى على بابل ونصب نفسه ملكا عليها وحكم فيها أكثر من عشر سنوات (721 - 711 ق. م) (انظر التصوير رقم 38) وكانت آخر سلالة من سلالات بابل السلالة البابلية الحادية عشرة أي سلالة الكلدانيين التي اشتهر فيها نبوخذ نصر الثاني (605 - 562 ق. م) وهو الذي سبى بني يهوذا من فلسطين إلى بابل وقضى نهائيا على مملكة يهوذا.

وكان الأراميون قد انتشروا في العراق وشكلوا فيه شبه ممالك مستقلة مملكة بابل، ومن أهم هذه الدويلات مملكة " زوحي " الأرامية التي أسسها الأراميون الذين استوطنوا على نهر الفرات ما بين عانة ومصب نهر بليخ.

التصوير رقم (38)
نصب حجرى لعلامة الحدود

يمثل الملك " مردوخ بلادان " يمنح أحد أعوانه بعض الأراضى وقد علت تاجه المخروطى كتابة تقول: " مردوخ بلادان - ملك بابل ".

وقد ضمت هذه المملكة مدنا عديدة: أهمها " عانات " (عانة) وخاريدى ورحوبوت (الرحبة) وشورا واشتهر من ملوك زوحى " حابانى ". وكان " حابانى " قد عرض خضوعه للأشوريين إلا أنه عاد وشق عليهم عصا الطاعة، فجهز عليه أشور ناصر بال الثانى (884 - 859 ق. م) حملة قوية واحتل بلاده ودمر معظم مدنه تدميرا كاملا، ثم بنى قلعتين على الفرات وجعل فيهما حاميتين أشوريتين الواحدة على الضفة اليمنى والثانية على الضفة اليسرى، وهناك مملكة " كمبولو " الواقعة على شاطئ دجلة الشرقى والتى ضمت أربع مدن محصنة، تمكن سرجون الثانى (722 - 705 ق. م) من الاستيلاء عليها وجعلها مقاطعة أشورية وذلك في أثناء غزوه للقبائل الكلدانية والأرامية التي ساندت " مردوخ بلادان " البابلى. واشتهرت كذلك مملكة " فقودو " التي امتدت في السهل، شرقى دجلة قريبا من مصبه وبجوار مملكة " كمبولو " وقد ورد اسمها مرتين في العهد القديم [1]. وفى منطقة وادى ديالى الأسفل استوطنت قبيلة " أيتوع " الأرامية وانتشر أبناؤها حتى سواحل الزاب الصغير شهر عليهم الأشوريون حملة عنيفة وأقصوهم عن بلادهم وأبعدوهم إلى

(1) راجع (أر، 50: 21)؛ (حز، 23: 23).

أقصى الجنوب وفرضوا عليهم الطاعة والضرائب [1].

وكانت قد جرت عدة مصادمات بين الأراميين ومملكة إسرائيل [2] فالتوراة تشير إلى أن الملك داود (1000 - 960 ق. م) أخضع ملك صوبا المدعو " هددعزر بن رحوب " حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات وأخذ من " طابح " و " بيروثاى " مدينتى " هددعزر " نحاسا كثيرا جدا [3]، كما ضرب أرام دمشق وجعل فيها محافظين[4]، وقدم ملك حماة " توعى يورام " فروض الطاعة إلى الملك داود بتقديمه هدايا ثمينة من الفضة والذهب [5]. وفى عهد سليمان تمرد أحد أتباع " هدعزر " ملك صوبا يدعى " رزون " كان قد هرب من عند سيده وأصبح رئيس غزاة فاستولى على دمشق وحكمها طوال مدة حكم سليمان [6]، وفى عهد سليمان أيضا استقلت دويلة " بيت عدينى " وغيرها من الدويلات الأرامية البعيدة، إلا أن سليمان تغلب، حسب رواية التوراة، على مملكة صوبا التي بقيت خاضعة له [7].

وبعد موت سليمان وانقسام إسرائيل إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا، صفا الجو للأراميين - فاستعادت الأقطار الأرامية التي سيطر عليها الموسويون في عهد داود وسليمان استقلالها، وتوغل الأراميون في أرض إسرائيل في عهد ملكهم حزائيل ملك دمشق، وهكذا أصبح الأراميون مسيطرين على أكثر أقطار الشرق الأوسط، ففى العراق استولت القبائل الأرامية الكلدانية على جميع المنطقة الممتدة من بابل إلى الخليج جنوبا، وفى سورية امتدت الدويلات الأرامية في جميع أنحاء سورية ومركزها الرئيسى دمشق مما جعل بلاد أشور مطوقة من أكثر أطرافها

---

(1) انظر المقال القيم للمطران غريغوريوس صليبا، " الأراميون في العراق " المنشور في مجلة " التراث الشعبى " عددى آذار ونيسان، 1971، ص 85 - 91.

(2) لقد أطلقت التوراة تسمية " بنى إسرائيل " على أتباع النبى موسى إلا أن القرائن تدل على أن بنى إسرائيل لا يمتون بأية صلة بحملة النبى موسى على فلسطين، ولقد شرحنا ذلك في الفصلين الثالث والخامس.

(3) (2 صم، 8: 3، 8)؛ (اخ، 18: 3 - 8).

(4) (2 صم، 8: 6).

(5) (2 صم، 8: 9 - 10)؛ 1 أخ، 18: 9 - 10).

(6) (1 مل 11: 23 - 25).

(7) (2 اخ، 8: 3 - 4).

بدويلات أرامية. ومع ذلك فقد كان هذا الكيان الأرامى السياسى معرضا للخطر بسبب نقطة الضعف البارزة في جهازه، وهى أن الأراميين لم يسعوا إلى إنشاء دولة كبيرة موحدة قوية تحت حكم واحد، فعند الخطر الشديد كانت تجرى اتحادات وقتية بين الدويلات الأرامية ولكن هذه الاتحادات لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تؤلف سيطرة عامة موحدة.

وقد كانت هذه الدويلات تتنازع فيما بينها بين الحين والآخر، لذلك وبعد انتعاش دولة أشور من جديد واستعادة قوتها أصبحت الممالك الأرامية مهددة بالغزو الأشورى، فقد اشتغل الأشوريين النزاعات بين الأراميين وإسرائيل التي استمرت قرنا كاملا تقريبا للانقضاض على الممالك الأرامية المتباعدة والمنتشرة في الشرق والغرب والجنوب الواحدة بعد الأخرى، ففى عهد آشور ناصر بال الذي حكم آشور بين سنة 884 - 859 ق. م هاجم هذا العاهل مملكة " بيت بخيانى " في " جوزان " في الشمال فاستسلمت له، ثم ضمر شلمنصر الثالث سنة 856 ق. م مملكة " بيت عدينى " في الجنوب إلى الممتلكات الأشورية.

وفى سنة 856 ق.م خاض حربا أخرى مع الأراميين الذين ألفوا اتحادا مع بقية الممالك الأرامية وفينيقيا وإسرائيل ودويلة عربية، ومع أن هذه المعركة التي وقعت في " القرقار " على نهر العاصى في سورية لم تكن حاسمة، إلا أن الأراميين تكبدوا هم وحلفاؤهم خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات، ثم وجه شلمنصر همه بعد ذلك إلى بابل فقهرها في حملتين قام بهما في سنتى 852 و 851 ق. م. وفى عام 849 ق. م قام بحملة ثانية ضد ملك حماة وقاتل ملك دمشق وحفاءه الذين قاموا بحرب ثانية. ثم عاد شلمنصر للنزال في سنة 842 ق.م فحارب حزائيل ملك دمشق منفردا وخرب الجيش الأشورى الإقليم كله وتمكن بعد ذلك أن يضم المناطق التي كانت تحتلها قبائل الفرات الأوسط وأخيرا كانت الضربة الأخيرة التي قضت على الممالك الأرامية على يد تفلات بلاسر الثالث وعلى يد سرجون الثانى، فالأول احتل دمشق سنة 732 ق. م. والثانى قضى على حماة آخر معقل من معاقل الأراميين سنة 720 ق. م، وبذلك قضى على الحكم الأرامى في سورية نهائيا، ولكن النشاط السياسى للأراميين لم يمت فقد استمر مدة أطول في الجنوب حيث القبائل الكلدانية التي أخذت تقاوم النفوذ الأشورى حتى تمكنت أخيرا من الاستيلاء على السلطة وتأسيس الدولة الكلدانية عندما أعلن القائد الكلدانى " نبوبولاسر " استقلاله في بابل ونصب نفسه ملكا عليها سنة 625 ق.

م.

ويقول الأستاذ دايرنجر [1] بعد إشارته إلى أدوار الضعف التي انتابت الأراميين " إن فقدان الأراميين الحرية السياسية لم يكن معناه نهاية التاريخ الأرامي، بل كان هذا الضعف الذي أصاب الحكومة فاتحة التفوق في الثقافة الأرامية ومسائل الاقتصاد الذي عم آسيا الغربية، وأصبحت اللغة الأرامية هي اللغة الدولية في ذلك العهد، وأصبحت على عهد الدولة الأخمينية إحدى اللغات الرسمية في الإمبراطورية، ولسانا عاما يتكلم به التجار من مصر إلى آسيا الصغرى إلى الهند، وقد بلغ من قوة اللغة

(1) انظر المراجع الآتية في موضوع أرام والأراميين:

R.D. Barnett, "Arameans". Enc Brit 1956, vol. II, pp 207 – 208; L.Delaporte, "Epigraphes Arameens", 1912; D.Diringer, "The Alphabet"., 1948, Chap. IV, pp. 253 – 294; Ph. Hitti, "History of Syria". 1951. pp. 162 – 174; E.G.H Kraeling, Aram and Israel", 1918; D.D.Luckenbill, "Ancient Records of Assyria and Babylonia", 2 vols, 1927, Mallowan and Rose, "Excavations in the Balikh, "1946, Irak VIII, 1946; S. Moscati, "Ancient Semitic Civilizations", 1957, Chap. 7, pp. 167 – 180; R.T. O'Callghan, "Aram – Nahraim". 1948; H.Oppenheim, "Tell Halaf". 1933; A.Sanda, "Die Aramaer", Der Alte Orient, IV part 3, 1902; S.Schiffer, "Die Aramaer", 1911; A.D. Sommer, "Sur les Debuts de 1'Histoire Arameenne", 1953; A.D. Sommer, "Les Arameens, "1949; M.E. Unger, "Israel and the Arameans of Damscus, (A Study in Archaeological Illumination of Bible History), "London, 1957; Rosenthal, "Die aramaistische.."; A.Cowley, "Aramaic Papyri…"; S.Frankel, "Die aramaischen…"; F.Macler, "Ency. Of Relegions and Ethics, "vol XII, p. 164.

انظر أيضًا المراجع الآتية العربية:

رفائيل بابو إسحاق، " الأراميون "، سومر 3 (1947)، ج2، ص 318 - 330، 19 (1963) ، ص 96 - 154؛ القس يعقوب أوجين منا الكلداني " دليل الراغبين في لغة الأراميين "، الموصل، 1900، المطران غريغوريوس صليبا " الأراميون في العراق "، مجلة التراث الشعبي، آذار ونسيان 1971، ص 85 - 91، ألبير أبونا " أدب اللغة الأرامية "، بيروت 1970.

الأرامية وحيويتها أن استعمالها قد ضاع بعد ألف سنة من زوال الدولة الأرامية، وعاشت اللهجات التي تفرعت عنها قرونا أخرى في بعض القرى النائية [1].

ز ـ خلاصة:

وصفوة القول: أن الأقوام الثلاثة - الكنعانيين والعموريين والأراميين - وكلهم من أصل واحد هو الأصل العربي السامي، أسهموا مجتمعين في نشر الحضارة السامية في الشرق الأدنى في مختلف حقولها: الزراعة، الصناعة، التجارة، الملاحة، الثقافة على اختلاف فروعها وتشعباتها. وكانت لغات هذه الأقوام الثلاثة لغة واحدة في الأصل هي اللغة السامية الأم التي يعتقد أنها كانت أقرب إلى لغة بدو الجزيرة العربية الحالية، ثم تفرعت منها لهجات الأقوام المختلفة في بيئاتهم الجديدة دون أن تفقد الصلة بينها، وقد أطلق عليها الباحثون كما تقدم ذكره اسم لغات الأقوام السامية الغربية الشمالية تمييزا لها عن اللغات السامية التي تمثلها اللغة الأكدية وفرعاها البابلي والأشوري في العراق وعن اللغات العربية الجنوبية. وقد بقيت آثار اللغة الأرامية حتى هذا اليوم في بعض القرى والجبال حيث خالطتها اللغة العامية الدارجة المعروفة بـ " السورت " يتكلم بها الآن بعض السكان في شمال العراق وفي سورية وبلاد العجم، وإلى وقت قريب كان اليهود القاطنون في زاخو يتكلمون بالأرامية. أما اللغة الفصحى فقد اقتصرت على لغة طقسية لخمس طوائف شرقية. ومن القرى السورية التي مايزال سكانها يتكلمون بلهجة " السورت " و " صيدنايا " و " معلولا " و " جب عبدين " و " نجعة "، وهذه تقع على بعد 29 و 56 و 60 كيلو مترا من دمشق على التوالي [2].

5 ـ هجرة الأكديين إلى وادي الرافدين وتأسيس أول امبراطورية سامية:

وفي نفس الوقت الذي كانت تجري فيه الهجرات إلى فلسطين وسورية كانت هناك هجرة من أهم الهجرات اتجهت نحو الفرات في

(1) S.Reich, "Etudes sur les villages Arameens de 1'Anti - Liban", Institut Francais de Damas, 7, 1936.

(2) انظر ما تقدم عن الأراميين واللغة العربية.

العراق عرفت بهجرة الأكديين، وتعتبر هذه الهجرة أقدم هجرة بين هجرات الساميين العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات، استقروا في بداية الأمر على ضفة نهر الفرات اليمنى في البقعة الممتدة بين عانة وهيت وهي أقرب موئل خصيب من موطنهم الصحراوى في بادية الشام، وقد مارس هؤلاء النازحون إلى هذه المنطقة حرفة الزراعة التي تعتمد على الرى، وذلك بشق قنوات من نهر الفرات من مسافات بعيدة في مقدم النهر وجر المياه إليها سيحا إلى مستعمراتهم الجديدة، لأن كمية الأمطار التي تسقط في هذه المنطقة شتاء لا تكفى لإنضاج زروعهم الشتوية، وانقطاعها صيفا يحول دون زراعة المحاصيل الصيفية بدون إرواء صناعى، وهكذا دفعت الحاجة هؤلاء المهاجرين إلى أن يتقنوا أساليب الرى وإنشاء جداول تؤخذ من نهر الفرات وتمتد إلى مسافات بعيدة حتى يصلوا بها سيحا إلى الأراضى الزراعية، كما حملتهم على أن يتعلموا كيف يخزنون مياه الفيضان ضمن سدود ويوزعونها في قنوات لإرواء أراضيهم، وقد مارسوا الزراعة بخبرة ومهارة، وكانت أهم مزروعاتهم الحنطة والشعير وكان لديهم الكثير من البقر والضأن والمعزى والحمير والخنازير، إلا أن هبوط مستوى النهر في تلك المنطقة في وقت لاحق حرمهم من المياه السيحية التي كانت تروى بساتينهم ومزارعهم فاضطر قسم منهم إلى مغادرة ديارهم والتوجه جنوبا، في حين أن القسم الآخر من السكان أخذوا يستعينون بالنواعير في رفع المياه إلى حقولهم الزراعية مستخدمين القوى المائية المتولدة من الشلالات التي أحدثها هبوط قعر النهر في تدوير هذه النواعير الضخمة، وهى ماتزال تستعمل حتى يومنا هذا في منطقة عانة ورواه، كما كانت عليه في تلك الأزمان السحيقة، أما الجماعات التي نزحت جنوبا فقد استقرت على ضفتى مجرى الفرات القديم غربى وجنوب غربى منطقة بغداد الحالية وامتدت مزارعها حتى مدينة " كيش " الكائنة على بعد 15 كيلو متر شرقى مدينة بابل، ومن مدنها فالمهمة عدا كيش: " أكد "، و " سيبار "، و " كوثا "، و " أوبيس "، و " أكشاك ".

ولم تكن هذه الجماعات عندما أسست مستوطناتها على ضفتى نهر الفرات في هذه البقعة الخصيبة ليخطر ببالها أن قومها سيصبحون بناة اقدم وأعظم

إمبراطورية في تاريخ الحضارة الإنسانية، أى الإمبراطورية الأكدية السامية التي أسسها سرجون الكبير في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد والتى سميت بالأكدية نسبة إلى عاصمته " أكد " التي أقامها، وقد دام حكمها زهاء قرن ونصف قرن من سنة 2371 إلى 2230 ق.م وكان انهيارها على يد القبائل الكوتية الجبلية التي انحدرت من جبال زاغروس فاحتلت بابل وقضت على الحكم الأكدى في البلاد.

التصوير رقم (39)

سرجون الكبير مؤسس الإمبراطورية الأكدية (2371 - 2316 ق.م)

يرى بعض الباحثين أن هذه الصورة تمثل صورة " ترام سين " حفيد سرجون، وليس سرجون نفسه

وقد شملت الإمبراطورية الأكدية معظم الهلال الخصيب، وعيلام وقسما من آسيا الصغرى إلى ساحل البحر المتوسط، فضمت بلاد آشور وما حولها شمالا وبلاد الكوتيين (قبائل زاغروس شمال العراق وشرقيه) وامتدت حتى ضمت قسما من آسيا الصغرى حتى ساحل البحر المتوسط، ويروى عن سرجون أنه وصل إلى جزيرة كريت، أما في الشرق فقد ضمت بلاد العيلاميين وهو القطر المعروف اليوم بعربستان وخوزستان ومن ضمنه مدينة السوس عاصمة العيلاميين، وقد أسس سرجون أسطولا في الخليج العربى بعد استيلائه على الدويلات السومرية في جنوبى العراق فمخر البحر المعروف اليوم ببحر عمان وبحر العرب ليضم جزائرهما إلى مملكته وهنا غسل يديه في مياه البحر كحاكم على أكد وسمور، وكان أبرز ملوك هذه المملكة بعد سرجون حفيده الملك نرام

سين (2291 - 2255 ق.م) الذي لقب نفسه " ملك الأقاليم الأربعة - ملك العالم ".

وقد أصبحت اللغة الأكدية بعد استباب السلطة الأكدية الحاكمة اللغة الرسمية في جميع العراق وفى أكثر الأقطار التي خضعت للحكم الأكدى. واللغة الأكدية ومعها البابلية والأشورية هى من اللغات السامية الشرقية تمييزا لها عن اللغات السامية الغربية الشمالية (أى اللغات السامية في سورية).

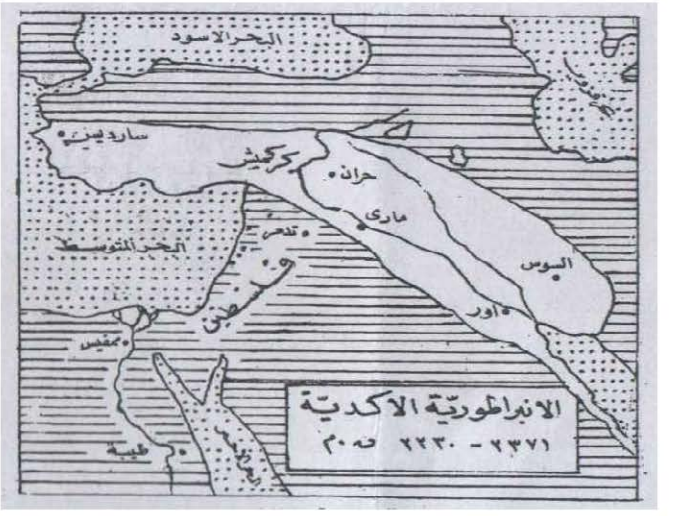

المرتسم رقم (7)

وقد استمرت الأكدية كلغة للتخاطب في العهد البابلى القديم والعهد الأشورى والعهد البابلى الأخير حتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، ثم زاحمتها اللغة الأرامية[1]، حتى أزالتها من التداول. وقد اقتبس الأكديون الخط المسمارى الذي كان شائعا استعماله في العراق كما استعاروا عبارات جمة من اللغة السومرية بعد اختلاطهم بالسومريين.

وكان الأكاديون قد برعوا في النحت والنقش فركزوا اهتمامهم في إظهار التفاصيل الدقيقة في الأختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف، فمن منحوتاتهم لوح " نرام سين " حفيد سرجون المعروف " بلوح الظفر " وقد عثر عليه في السوس

(1) انظر ما تقدم من الأراميين واللغة الأرامية.

من بلاد العيلاميين سنة 1897 وهو محفوظ الآن في متحف اللوفر في باريس. ويعد هذا اللوح من أعظم الأعمال الفنية في العالم القديم وهو أقدم عمل فنى عظيم أخرجته يد رجل من الجنس السامى. ويصور هذا اللوح الملك " نرام سين " وهو على رأس جيش أكدى في أعالى الجبال قاهرا قوما يعرفون باسم " لولوبيين "، ويظهر في أعلى اللوح الشعار الأكدى مكررا، كما عثر على أثر ضخم مصنوع من قطعة واحدة تمثل في الظاهر رأس سرجون الكبير أو نرام سين بلحيته الكبيرة الكثة وعليه خوذة مصنوعة من معدن البرونز المخطوط بالحديد، ويعتبر هذا الأثر من أجمل ما وصل إلينا من الصنع الدقيق في هذا الفن من العصور الأكدية (انظر التصوير رقم 39).

ومما يذكر أن الأكديين الساميين كانوا أول من ابتدع نظام الإمبراطورية وذلك في تعيين الحكام في الأصقاع يحكمون فيها باسم الدولة الأكدية، وقد سبقوا جميع الأمم على ذلك فهم منشئوا نظام الحكم الدولى المعروف والمتبع إلى اليوم في العالمين. كما كان الأكديون قد شاركوا في توطيد أركان الحضارة القائمة على الزراعة المرتكزة على الرى الدائم في العراق، وهى حضارة سامية عربية أسسها الساميون العرب النازحون من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات، وقد سماها بعض الباحثين " الحضارة الإروائية " أو " الحضارة النهرية ". ويعد الباحثون بلاد ما بين النهرين الوطن الأول لنظام الرى الدائم هذا [1].

وننقل هنا ما دونه العالم الألمانى الدكتور أنطون مورتكارت في وصف الأكاديين حيث يقول: " ينتسب الأكاديون إلى أسرة الشعوب السامية البدوية الكبيرة التي استوطنت دوما الصحراء العربية - الشامية، ولابد أن يكون موقع ولوج الأكاديين إلى أراضى سومر إلا من المنطقة التي يقترب فيها الدجلة والفرات اليوم اقترابا شديدا من بعضهما وتماما في المناطق المحيطة بمدينة كيش القديمة (سابقة مدينة بابل) [2].

عصر مسيلم:

ومما يذكر في هذا الصدد أن الدكتور مورتكارت قد أكد على وجوب إضافة حقبة حضارية سامية قائمة بذاتها تعود إلى عصور فجر التاريخ وتسبق عهد الإمبراطورية الأكدية، وقد سمى هذه الحقبة الحضارية السامية البحتة التي

(1) انظر الدكتور أحمد سوسة: " الرى والحضارة في وادى الرافدين ".
(2) أنطون مورتكات، " تاريخ الشرق الأدنى "، ص 84.

مصدرها هجرة الساميين العرب من شبه جزيرة العرب " عصر مسيلم " نسبة إلى " مسيلم " أحد الملوك الساميين الأوائل في مدينة " كيش " السامية، وهذا الاسم كما هو واضح اسم سامى عربى، ويعتقد أن زمن مسيلم هذا يرجع إلى أواخر النصف الأول من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد.

ويرى الدكتور مورتكارت أن " عصر مسيلم " يمثل نقطة تحول مركز ثقل الحضارة إلى مدينة كيش السامية عاصمة الملك مسيلم التي تعتبر على حد تعبيره الأم القديمة لمدينة بابل الشهيرة عاصمة الحقبة الكلاسيكية والتى انطلقت منها منذ ذلك الحين موجة عم بها العنصر السامى المنطقة بأسرها. والمنطقة التي يقصدها الدكتور مورتكارت هى المنطقة التي تمتد من مدينة " كيش " جنوبا إلى مدينة سيبار شمالا حيث تقع داخل هذه المنطقة أطلال جمدة نصر ذاتها، ويمضى مورتكارت في حديثه حول عصر مسيلم فيقول: " ويعود الفضل في كل ما نعرفه بشكل ملموس عن هذا العصر في النواحى المادية والفكرية كليا إلى المكتشفات الأثارية، وهذا ما دعانا بحق إلى ضم هذه الحقبة والحقبتين السابقتين الوركاء وجمدة نصر إلى عصور فجر التاريخ وليس إلى فترة بدء التاريخ. هذا ويعتبر الانقلاب الذي طرأ على كامل حضارة عصر جمدة نصر وانتقالها إلى عصر مسيلم من أعنف ما عرفناه خلال جميع مراحل تطور الشرق الأدنى القديم ".

ثم يضيف دكتور مورتكات إلى ذلك قوله: " إن عصر مسيلم يمثل حضارة جديدة كليا إذا ما قورنت بعصرى الوركاء وجمدة نصر، إذا طرأ على فن العمارة في هذا الدور تبدل شمل نواحيها التقنية البحتة وعناصرها الرئيسية في نفس الوقت، فشكل الآجرة في عصر مسيلم يشكل لغزا أكثر تعقيدا من لغز اختراع مادة الآجر نفسها في العصور السابقة، ولا يقتصر الشئ الجديد على شكل الآجرة وحسب بل تعداه أيضا إلى أسلوب تأسيس البناء، كما طرأ تبديل حاسم على صناعة الأختام وعلى فن النحت من عصر جمدة نصر إلى عصر مسيلم بنفس الدرجة التي شملت فن العمارة ".

وأخيرا ينتهى دكتور مورتكات إلى التأكيد على الدور الذي لعبه الساميون في تطور حضارة الشرق الأدنى بقوله: " من المؤكد أن الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك إمبراطورية أكدية أصلا، ومن المؤكد أيضا أنهم رغم وقوفهم منذ قرون ضد السومرية تصاهروا مع السومريين واختلطوا بهم وتعاونوا معهم في جميع المجالات الفكرية بعد أن دخلوا البلاد مسالمين على هجرات متتالية

وبأعداد متزايدة حتى أصبح تفوقهم على السومريين حقيقة واقعة منذ قرون عديدة كما حدث في ماري وكيش خاصة وإننا نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية أقدم من سلالة أور الأولى. ناهيك بعصر مسيلم الذي يشكل الفصل الأخير لعصر فجر التاريخ، تلك الحضارة التي تجعلنا نفترض وجود مساهمة سامية قوية في بنائها وذلك على عكس ازدهار الحضارة السومرية خلال حقبة أوروك (الوركاء) [1].

6 ـ هجرة القبائل العربية إلى مصر:

وقد أكد عدد من مشاهير علماء الآثار أن الهجرات من جزيرة العرب لم تقتصر على سورية وفلسطين ولبنان والعراق بل تعدتها إلى مصر أيضا، حيث يعتقد بأن جماعات نزحت عبر جزيرة العرب إلى وادى النيل واستقرت فيه في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد، فجاءت هذه الجماعات إلى مصر من برزخ السويس أو من طريق جنوب الجزيرة عبر مضيق باب المندب، جاءت ومعها حضارة أرقى مما كان في مصر، فجاءت بحسب رأيهم بفن التحنيط وبالكتابة الهيروغليفية [2]، كما أدخلت معها معرفة المعادن وبخاصة النحاس، وأدخلت معها كذلك الديانة الوثنية العربية وفنونها ونظمها الاجتماعية والسياسية [3]، كما يؤكد هؤلاء أن الساميين عمموا في مصر لغتهم وصبغوها بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة وأن لغتهم حافظت على هذه الصبغة بالرغم مما طرأ عليها مع مرور الزمن من تغيير وتبديل باختلاط السكان [4].

ويروى الأستاذ طه باقر: أن الباحثين في أصول أقوام الشرق الأدنى يرون بأن هجرة مهمة من الساميين ذهبت إلى مصر في حدود الألف الرابعة قبل

(1) المرجع السابق، ص 44 - 52.
(2) الدكتور محمد عزة دروزة: " تاريخ الجنس العربي "، ج1، ص 26.
(3) المرجع السابق، ج2، ص 11.
(4) انظر بريستد: " تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى "، غوستاف لوبون، " الحضارة المصرية "، غوستاف جيلى، " تاريخ المدنية المصرية "، الدكتور كمال حسن: " تاريخ السودان القديم "، بارتون، " نبذة عن الأصول السامية "، الدكتور فيليب حتى، " تاريخ العرب "، الدكتور محمد عزة دروزة: " تاريخ الجنس العربى "، ج1 و2.

الميلاد واختلطت بالسكان الأصليين كما نعرفهم في التاريخ [1].

ويقول جرجى زيدان [2] نقلا عن الأستاذ كينغ [3]: " أن الساميين نزحوا إلى مصر من عهد قديم جدا، ويؤخذ من الاكتشافات الأثارية الأخيرة أن العصر الحديدى بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها، أى أن المصريين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية قبل دخول الساميين فأتاهم الساميون بالحدادة منذ أقدم أزمنة التاريخ المصرى ولعلهم حملوا إليهم ذلك من وادى الفرات عن تمدن سومرى الأصل اكتسبه الساميون بالمجاورة قبل فتح بابل وحملوه إلى مصر، ومما يستدل به على قدم نزوح الساميين إلى مصر أن (بتاح) أقدم آلهة المصريين، هو إله سامى الأصل ".

ولقد قال المؤرخ ماسبيرو: " إن لعروق المصريين الأقدمين والعرب والفينيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها إلى بعض وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم " [4].

أ ـ حكم الهكسوس في مصر:

والرأى الغالب أن الساميين كانوا قد نزحوا من جزيرة العرب إلى شبه جزيرة سيناء واستقروا هناك منذ أقدم أزمنة التاريخ، وكان المصريون يسمونهم " منيوساتى " " أى رعاة آسيا " وصارت هذه القبائل تعرف لدى اليونانيين في وقت لاحق باسم " الهكسوس "، أى ملوك الرعاة، فغزت هذه القبائل من هناك سورية وفلسطين وأسست فيها دولة شملت ثقافتها القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، والتحقق بجمعهم المكون معظمه من العموريين والكنعانيين أقوام نزحوا من برارى آسيا الوسطى وأوربا على شكل موجات إلى جهات الشرق الأدنى. ومن أهم مراكزهم الرئيسية في سورية وفى فلسطين مدينة " قطنا " التي يرجح أنها كانت عاصمتهم وتعرف خرائبها اليوم باسم " المشرفة " في شمال شرقى حمص، وبلدة " شكيم " وتعرف الآن باسم " البلاطة " بالقرب من

(1) طه باقر: " مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة "، ج1، ج2، ص 13؛ سومر: م5، 1949، ص 132.

(2) جرجى زيدان: " العرب قبل الإسلام " ج1، ص 52.

(3) L.W. King, "Egypt and Western Asia in the Light of recent Discoveries", London, 1907.

(4) الدكتور محمد عزة دروزة، " تاريخ الجنس العربى "، ج2، ص 10.

نابلس، وبلدة " لخيش " (تل الدوير حاليا) و " شاروهين " و " أريحا " واشتهرت مواضع الهكسوس في سورية في شكل بنائها الخاص بهم، وهو على هيأة حصون محاطة بخنادق المياه. وكان حكم الهكسوس قائما على النظام الإقطاعى الذين فرضوه على البلاد التي وقعت تحت قبضتهم، وقد اغتنم هؤلاء الهكسوس فرصة الضعف والانحلال اللذين كانا يسودان مصر حينذاك بسبب النزاع الداخلى بين مصر العليا ومصر السفلى، فغزوا مصر واستولوا على مصر السفلى ولاسيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها حيث ابتنوا عاصمة لهم هناك، واستمر الهكسوس يحكمون مصر السفلى زهاء القرنين بين (سنة 1785 وسنة 1580 ق. م) [1]. وكان المصريون يسمون الهكسوس " شاسو " أى البدو وعرفت دولتهم بدولة البدو، وكان العرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة (انظر المرتسم رقم 8).

وأول من أطلق على هذا القوم اسم الهكسوس هو الكاهن المصرى " مانيثون " الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود 280 ق.م، فقد نقل المؤرخ يوسفوس كلام مانيثون عن الهكسوس بما هو نصه: " واتفق على عهد تيماوس أحد ملوكنا أن الإله غضب علينا فأذن لقوم لا يعرف أصلهم جاءوا من الشرق وتجاسروا على محاربتنا وغلبونا على بلادنا وأذلوا ملوكنا وأحرقوا مدننا وهدموا هياكلنا وآلهتنا وساموا الناس ذلا وخسفا فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد ثم نصبوا عليهم ملكا منهم اسمه " سلاطيس " أقام في منفيس وضرب الجزية على مصر أعلاها وأسفلها وأقام الحاميات في المعاقل لدفع الأشوريين عن وادى النيل إن هم طمعوا به وبنى مدينة " أوراس " في ولاية " صان " لهذه الغاية وحصنها بالأبراج والقلاع والأسوار، وأكثر من حاميتها حتى بلغ عدد أفرادها 240.000 وكان سلاطيس يأتى إليها في الصيف لجمع الحنطة ودفع رواتب الجند وتمريسهم على شئون الحرب، وبعد 13 سنة من حكمه خلفه ملك اسمه " بيون " وحكم 44

(1) ذهب البعض إلى أن قبائل الهيكسوس حكمت مصر حوالى خمسمائة عام بين القرن الثالث والعشرين والثامن عشر قبل الميلاد وذلك استنادا إلى قول المؤرخ المصرى مانيثون أن الهكسوس حكموا مصر 511 سنة، بينما يرى بريستد أن حكم الهكسوس لم تزد مدته على مائة سنة في مصر والقول بأن مدة هذا الحكم أطول من ذلك يطيل المدة بين سقوط الأسرة الثانية عشرة ونهاية حكم الهكسوس، ويضيف إلى ذلك قوله بأن الأرجح أن دخول الهكسوس إلى مصر كان تدريجيا أشبه بشئ بهجرة غير مصحوبة بحروب أو منازعات " تاريخ مصر "، ص 143.

سـنة وجـاء بعـده
(أبا خناس) الذي حكم 36 سنة وسبعة أشهر، ثم (أبو فيس) 61 سنة و (بانياس) 50 سنة وشهرا، وأخيرا حكم (أسيس) 49 سنة وشهرين، وهؤلاء الستة أول من حكم من ملوكهم ولم يكفوا عن محاربة المصريين لأنهم كانوا يلتمسون إبادتهم، وكانت هذه الأمة تسمى هكسوس أى ملوك الرعاة لأنها مؤلفة من (هيك)

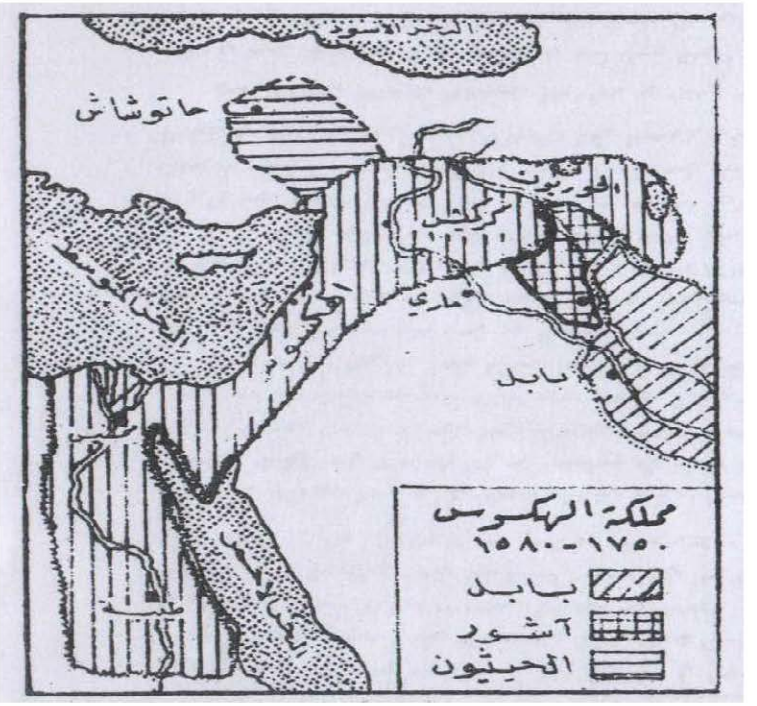

المرتسم رقم (8)

ومعناها باللغة المقدسة ملك و " سوس " راعى ولكن البعض يقول أنهم " عرب " ويمضى يوسفوس فينقل عن مانيثون أيضا قوله إن هذا القوم الذي أطلقنا على زعمائه اسم ملوك ودعوناهم حكموا في مصر 511 سنة [1]، وفى أصل الهكسوس يقول بريستد: " ويستنتج من رواية مانيثون ومن أخبار سورية وفلسطين بعدئذ إمبراطورية الهكسوس سامية الأصل " [2].

(1) "The complete Works of Joephus". By W. Whiston p. 547.
(2) بريستد، " تاريخ مصر القديم "، ص 142.

ب ـ حضارة الهكسوس وثقافتهم:

لقد اقتبس الهكسوس الحضارة المصرية أثناء حكمهم في مصر وأصبح ملوكهم فراعنة مثل ملوك مصر، وقد أدخلوا إلى مصر استعمال الخيل والعربات الحربية التي تجرها الخيول مما ساعدهم على الفتح وإحداث الرعب والفزع بالمصريين الذين لم يشاهدوها من قبل، ويدل ذلك على صلة الهكسوس بالأقوام الهندية الأوربية التي جاءت منها موجات إلى أجزاء الشرق الأدنى فأدخلت معها الخيول إلى تلك الأجزاء [1]. وقد أدخل الهكسوس إلى مصر أيضا السيف المقوس المصنوع من الحديد والقوس المركب، وهو القوس الذي ظهر لأول مرة في العراق في عهد السلالة الأكدية، كما أدخلوا تحسينات مهمة في فن التعدين، وترجع إلى عهد الهكسوس طائفة من التآليف العلمية التي كانت نسجا عن أصول أقدم، ولكنها دونت في هذا العهد، كما أن جزءا مهما من المعرفة بالرياضيات المصرية مستمد من نصوص هيروغليفية من عصر الهكسوس.

ومما يذكر أن اثنين من ملوك الهكسوس كانا يحملان اسم " يعقوب - إيل " و " يعقوب - بعل " جريا على العادة المتبعة بإلحاق اسم الإله باسم الملك من قبيل التبرك، وقد وردت كلمة " يعقوب - إيل " أيضا بصيغة اسم لمكان في الكتابات

(1) يفيد الباحثون أن موطن الخيول الأصلي هو أمريكا حيث كانت وحشية كباقي الحيوانات الوحشية وقد وجدت طريقها من أمريكا إلى آسيا منذ العصور الحجرية القديمة وذلك عندما كانت أمريكا وآسيا تشكلان قارة واحدة ثم انتقلت إلى أرض فلسطين في حالتها الوحشية في العصر الميسولثي (20.000 - 7000 ق.م) ، وقد دجنت منذ عهد قديم في مكان ما شرقي بحر قزوين من قبل قبائل الهندو - أوروبية الرحل، وقد أدخلت إلى سورية في عهد الهيكسوس ومنها انتقلت إلى مصر ثم إلى الجزيرة العربية حيث كان لها أضمن حماية للحفاظ على سلالتها الأصلية دون الاختلاط بدك الخيول الأخرى، لذا فإن جميع أنساب الخيول العربية الممتازة في العالم ترجع إلى البادية العربية، وأهل الجزيرة العربية ما زالوا حتى يومنا هذا يعنون عناية خاصة بالخيول الأصلية ويحافظون على سلالتها العربية إلا أن إيقاف الغزو القبائلي وانتشار وسائل النقل الآلية بعد الحرب العالمية الأولى أثرت في منتوج الخيول الأصلية في البادية، فهبط عددها هبوطا كبيرًا بدرجة أن عاف معظم أفراد القبائل الرحل تربيتها لما يكلفهم ذلك من نفقات وجهود بلا عوض يذكر، فبقيت تربية الخيل بأيدي القبائل العربية المستوطنة على ضفاف الرافدين والمحترفة الزراعة لتوفر أسباب تربيتها لديهم ولدوام حاجتهم إليها بنطاق ضيق (انظر كتاب الدكتور حتي " سورية " الطبعة الإنكليزية، ص 52).

المصرية[1]، مما يدل على على أن يعقوب كان اسما شائعا بين القبائل السامية، كما أن اسم الإله " إيل " الذي ورد ذكره في التوراة كان معروفا عند الساميين العرب قبل عهد النبى موسى إذ كانت له مكانة سامية عند الكنعانيين والأراميين باعتباره " الإله العلى ".

أما ديانة الهكسوس فليست لدينا معلومات واضحة عن عبادتهم إلا أن المعروف على وجه التحقيق أنهم لم يكونوا يعبدون الآلهة المصرية، والمعلوم أن الهكسوس عندما اتخذوا أفارس عاصمة في مصر عبدوا الإله " سوتح " وقد تواتر أن الملك " أبو فيس " لم يسمح بعبادة إله آخر في البلاد كافة [2]، لذلك فقد نكون أقرب إلى واقع الحال إن خلصنا إلى القول بأن فكرة التوحيد كانت شائعة بين الهكسوس مثلما كانت معروفة لدى الكنعانيين والأراميين والمديانيين (انظر ما تقدم عن مكانة الإله " إيل " في ديانة الكنعانيين والأراميين).

ج ـ أسرة سامية عربية مهاجرة إلى وادى النيل على نقش مصرى قديم:

ومما يدل على أن هجرة الساميين العرب من الجزيرة العربية إلى وادى النيل ترجع إلى زمن قديم أن المصريين قد سجلوا في نقش عثر عليه في منطقة بنى حسن على نهر النيل الواقعة على بعد حوالى مائتى ميل جنوب القاهرة صورة ملونة جميلة لأسرة سامية عربية مهاجرة من جزيرة العرب أو فلسطين إلى وادى النيل، ويرجع الدكتور (حتى) أنها عمورية من جنوب فلسطين، وقد نقش هذا التصوير الذي يرجع إلى زمن الفرعون " سيزوستريس الثانى " حوالى 1900 قبل الميلاد، على جدران مقبرة الحاكم المصرى " خنوم هوتيب " ويمثل المنظر رئيس قبيلة عربية (كنعانية أو عمورية) يسمى " أبيشاى " وأفراد عائلته وأتباعه جاءوا نازحين من شمال جزيرة العرب إلى مصر، وقد ورد ذكر شخص باسم " أبيشاى " أيضا في التوراة بصفته أخ أحد قواد الملك داود يرجع إلى حوالى سنة 1000 ق.م [3].

(1) Olmstead, "Palestine", P. 106.

(2) آرمان، " ديانة مصر القديمة "، ص 120.

(3) (ا صم، 26: 6 - 9)، (2 صم، 21: 17، 23: 18).

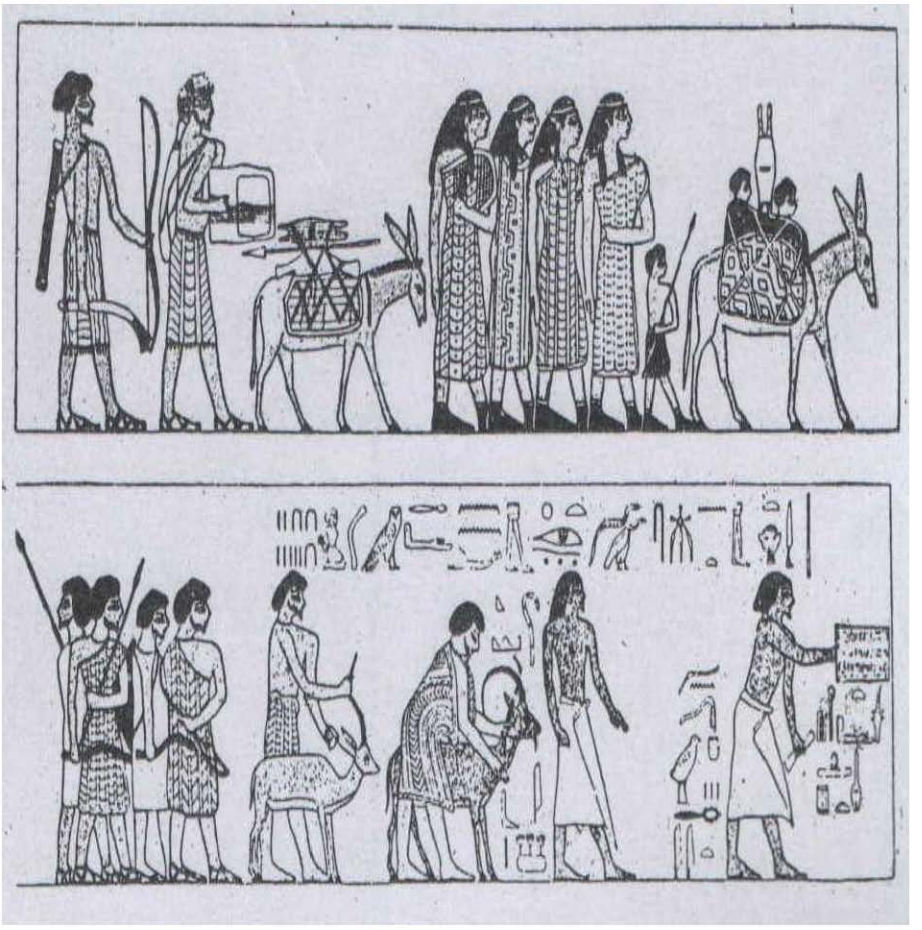

التصوير رقم (40)
أسرة سامية عربية مهاجرة إلى وادى النيل على نقش مصرى قديم
يرجع إلى ما قبل حوالى أربعة آلاف سنة

ويشاهد في النقش موظفان مصريان يتقدمان الموكب ليقدما الجماعة إلى الحاكم المصرى " خنوم هوتيب " وقد ورد في الكتابة الهيروغليفية

التصويرية التي يحملها أحد الموظفين المصريين بيده إلى أن هذه الجماعة هى من " سكان الرمال " وقد جاءت إلى مصر وهى مؤلفة من 36 شخصا من نساء وأطفال ورجال يرأسها الشخص المسمى " أبيشاى " وقد جاءوا بهدايا معهم إلى الحاكم منها كمية من مادة (الكحل) التي تصبغ بها أهداب العين إلى زوجته، وقد سمى " الكحل " بـ " ستيبيم ".

وتتألف ألبسة هذه الجماعة كما تشاهد في النقش بألوانها الأصلية من أردية صوفية عليها زخارف ذات ألوان زاهية وهى تصل إلى الركبة بالنسبة للرجال وإلى الكوارع بالنسبة للنساء وألبسة الجميع معلقة من فوق كتف واحد بحيث يكون الكتف الثانى عاريا. والرجال ملتحون وقد رتبوا لحاهم على الطريقة التي يتبعها البدو في ترتيب لحاهم في الوقت الحاضر أى مستهدفة الرأس ملتمة عند الحنك، أما شعر رأس النساء فمدلى على الأكتاف وعلى الصدر وقد ربط بشريط أبيض على دائرة الجبهة، وقد لبس الرجال نعالا من الجلد بينما لبست النساء أحذية قصيرة، وتشاهد قرب الماء وقد وضعت داخل أوعية موشاة بزخارف ملونة. أما أسلحتهم كما تشاهد في النقش فهى الأقواس والنبال والرمال كما ويشاهد أحدهم وهو يعزف على قيثارة ذات ثمانية أوتار (انظر التصوير رقم 40).

د ـ طرد الهكسوس من مصر:

ولما كان أمراء مصر العليا قد بقوا محافظين على استقلالهم بعد احتلال الهكسوس لمصر السفلى فقد صاروا يتحينون الفرص للقضاء على الهكسوس وطردهم من مصر، وبعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن تم طردهم نهائيا من مصر، على يد القائد المصرى " أحموسة " وهو مؤسس السلالة الثامنة عشرة، وبها ابتدأ عهد جديد في تاريخ مصر هو عهد الإمبراطورية الذي دام زهاء خمسة قرون (1580 - 1085 ق. م) ولم يكتف ملوك هذه السلالة بطرد الهكسوس من مصر بل لاحقوهم إلى فلسطين وسورية وحاربوهم هناك في مقرهم القديم الذي غزوا منه مصر، فاستطاع أحد ملوك هذه السلالة أن يقضى على كيان الهكسوس في بلاد الشام في معركة كبرى وقعت في " مجدو " (1479ق.م)، فثبت بذلك النفوذ المصرى هناك وأسست الإمبراطورية المصرية التي شملت سورية وفلسطين.

التصوير رقم (41)
أسرى من فلسطين وسورية واقتادهم المصريون على أثر الفتوحات المصرية في الشرق في القرن الرابع عشر قبل الميلاد

7 ـ العموريون العمالقة وتأسيس الامبراطورية البابلية القديمة (ثانى امبراطورية سامية)

قلنا فيما تقدم أن العموريين العمالقة انتشروا في بداية هجرتهم من جزيرة العرب في أواسط سورية وفى لبنان ثم امتدوا غربا إلى فلسطين وأسسوا هناك عدة دويلات، أهمها دولة " عمورو " التي اتخذت بلدة " مارى " على نهر الفرات عاصمة لها، إلا أن أكثر دويلاتهم ومن ضمنها عاصمتهم " مارى " ضمت إلى إمبراطورية سرجون الأكدية في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، ولكنهم عادوا فأسسوا بعد سقوط الإمبراطورية الأكدية عدة دويلات في وادى الرافدين حتى تمكنوا في أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد من تأسيس مملكة موحدة حكمت أكثر أقطار الشرق الأوسط، وعرفت مملكتهم بالمملكة البابلية القديمة كما عرفت سلالة ملوكها بسلالة بابل الأولى.

وتنتمى هذه السلالة إلى الموجة السامية الثانية (هجرة العموريين العمالقة) وقد جاءت قبائلها من أعالى نهر الخابور (خابور الفرات) وانحدرت إلى الجنوب مع مجرى الفرات حتى استقرت في منطقة بابل، وكان أول ملوك هذه السلالة الملك " سموابوم " حكم 13 سنة من سنة 1894 إلى سنة 1881 ق.م. وقد اتخذ بابل عاصمة له، وكانت بابل حينذاك بلدة صغيرة لم تشتهر بعد، كان يقطنها

بعض الساميين الغربيين وبقايا الأكديين التي كانت عاصمتهم " أكد " قريبة من منطقة بابل، فصارت بعد ذلك ذات شأن عظيم في تاريخ البلاد حتى أن اسم بابل أطلق على القسم الوسطى والجنوبى من العراق.

وقد بلغ عدد ملوك هذه السلالة أحد عشر ملكا حكموا جميعا زهاء ثلاثة قرون بين سنة 1894 وسنة 1595 ق. م اشتهر من بينهم الملك حمورابى الشهير، وهو الملك السادس لهذه الدولة حكم 42 سنة بين 1791 وسنة 1750 ق.م وأعظم ما خلد مجده وأطار شهرته " شريعته العظيمة ".

وقد شن حمورابى في بداية حكمه حربا على بلاد سومر الجنوبية فضمها إلى مملكته وأسرع في إخضاع دويلات ما بين النهرين المهمة مبتدئا بدولة آشور في الشمال فاستولى على مدينة أشور ثم ألحق بمملكته مملكة مارى وتقدم شمالا على الفرات وافتتح المدن القريبة في بلاد الشام وسواحلها وهكذا ضم حمورابى إلى حكمه قسما كبيرا من بلاد الشرق الأوسط وأسس الإمبراطورية البابلية القديمة الواسعة، ولم تقتصر شهرة حمورابى على أعماله الحربية بل امتدت إلى الإصلاحات التي قام بها وإلى نشره الحضارة البابلية وثقافتها في البلاد التي فتحها، وعنى عناية شديدة بإدارة المملكة وضبطها وتهذيبها، وقام بمشاريع عديدة بخاصة مشاريع الرى فنشر الرخاء في البلاد، كما عنى عناية خاصة بالشئون الدينية والعدل.

التصوير رقم (42)
الملك حمورابى صاحب الشريعة البابلية الشهيرة

وأشهر ملوك الإمبراطورية البابلية القديمة (1792 – 1750 ق. م)

وبعد وفاة حمورابى خلفه ابنه " شمسو - إيلونا " (1749 - 1712 ق. م) الذي اشتهر بحفر القنوات والترع، ثم تولى الحكم بعده أربعة ملوك جهدوا في المحافظة على الإمبراطورية ولكنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون تأسيس إمارة جديدة مستقلة على شواطئ الخليج العربى وهى سلالة الأمراء التي عرفت سلالة القطر البحرى التي ظهر منها الكلدانيون، مؤسسو الإمبراطورية الكلدانية في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وقد تمكن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم على سواحل الخليج العربى وأكثر المدن السومرية والأكدية في جنوب العراق بعد أن كاد الجنس السومرى يتلاشى في الجنس السامى (الأكدى والعمورى). ثم أخذت الدولة البابلية تسير نحو الاضمحلال والزوال، ففى زمن الملك الحادى عشر " شمسو ديتانا " (1625 - 1595 ق. م) هجم الحيثيون والجبليون من بلادهم في آسيا الصغرى على بلاد بابل فاستباحوا مدينة بابل ونهبوها وخربوها ثم قفلوا راجعين إلى مستوطناتهم في جبال طوروس محملين بالغنائم والكنوز، وكان ذلك عام 1595ق.م، وفى أعقاب تراجع الحيثيين زحف الكاشيون وهم جبليون أيضا من جبال زاغروس بقيادة زعيمهم " كنداش " مستغلين ضعف البلاد البابلية وخلوها من ملك قاهر وجيش مدافع فنزلوا أواسط العراق واحتلوا مدينة بابل حيث أسسوا سلالة كاشية ورثت جميع ممتلكات الدولة البابلية القديمة في العراق [1].

(1) H.G. Guterbock, "Babylonia and Assyria", Enc. Brit., 1965 ed., Vol II,, pp. 951 - 979.

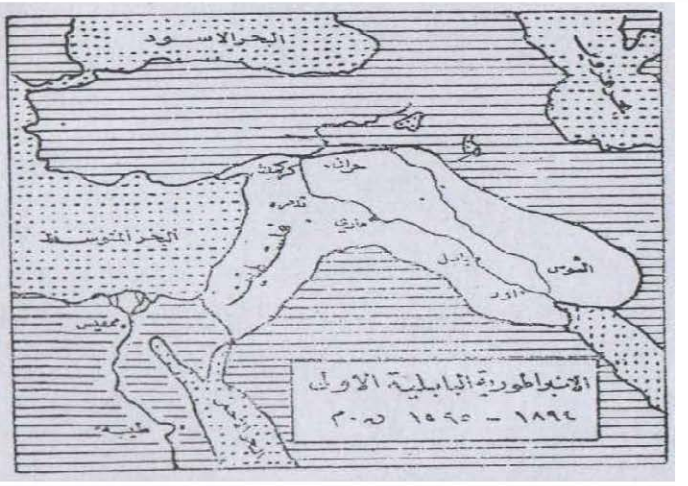

المرتسم رقم (9)

8 ـ الأشوريون وتأسيس الامبراطورية الأشورية ثالث امبراطورية ـ سامية:

عرضنا فيما تقدم صورة عامة لأقدم الأقوام السامية التي نزحت من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب وهم الكنعانيون والعموريون والأراميون والأكديون والهكسوس، وهؤلاء كلهم كانوا قد اتجهوا إلى سورية والعراق. أما ناية نهر دجلة فكان أول من قصدها من القبائل السامية جماعات عبرت نهر الفرات فتوغلت في منطقة ما بين النهرين، ثم استقرت في حوالى أواخر الألف الرابعة أو أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد في المنطقة الشمالية من العراق في البقعة الممتدة على طول ضفة نهر دجلة اليمنى بين الموصل والشرقاط، وكانت هذه المنطقة تعرف باسم " شوبارتو " فأسست هذه الجماعات مدينة هناك صارت تعرف فيما بعد بمدينة " أشور " نسبة إلى الإله " أشور " إله القوم الذين سكنوا هذه الديار، كما صارت الجماعات التي استقرت في هذه المنطقة تسمى بالأشوريين، وأخيرا صارت المنطقة بأسرها تعرف باسم " أشور " وأطلال مدينة " أشور " هذه تقع اليوم على الجانب الأيمن من نهر دجلة على بعد حوالى تسعة كيلو مترات من جنوب مدينة الشرقاط وتسمى (قلعة الشرقاط) وفى هذه البقعة أقام هؤلاء النازحون إمارة صغيرة مؤلفة من مدينة أشور وأرباضها على نسق دويلات المدن الأكدية في جنوب العراق، وكانوا على اتصال مستمر بهذه المدن التي أخذوا عنها فن النقش والعمارة والكتابة وأسباب المعيشة التي توافرت فيها حينذاك، وكانت معظم زراعتهم على الأمطار، وكان الأشوريون يتكلمون فيما بينهم بلغة سامية قريبة من اللغة التي كان يتكلمها الأكديون في منطقة أكد

الجنوبية وكتبوا بالخط المسمارى لغتهم الأشورية (انظر ما تقدم عن هجرة الأكديين).

وبالنظر لموقع بلاد أشور الذي يجعلها معرضة للهجمات من جميع أطرافها فليس غريبا أن كانت هذه الدولة الجديدة قد بنت قواعدها على أساس حربى، حيث علمت الحرب الدائمة أهل أشور كيف يحمون حدودهم ويتحينون الفرص للاستقلال في مدنهم عن حكم الدول التي كانت فتوحاتها تخترق أراضيهم بين حين وآخر. فقد كان لدولة آشور جنود غير نظاميين، ثم حل محلهم جيش منظم، وهو القوة الرئيسية للدولة الأشورية، وتطورت هذه الدولة إلى تنظيم ثابت ومحكم لم تؤثر فيه المنافسات والمنازعات التي كانت سائدة بين الدويلات حتى صار في استطاعة مملكة آشور أن توجه جميع قواها الموحدة للقضاء على أعدائها الخارجيين. وساعد الأشوريين على ذلك أنهم كانوا قد بدأوا باستعمال الخيل والعجلات في جيشهم، وفى النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية ضاربة رآها العالم القديم. وكانت التجارة رائجة من بلادهم وإليها، فكانت قوافل تجارتهم تمتد إلى آسيا الصغرى، وقد توثقت صلاتهم بالشعوب الأخرى المجاورة، فازدادوا قوة وثراء، ولما كانت الحقبة التي عاشتها بلاد آشور طويلة تخللتها عدة تقلبات أساسية، فقد رأى علماء الآثار تقسيم تاريخ بلاد آشور إلى ثلاثة عهود رئيسية هى:

1 - العهد الأشورى القديم.

2 - العهد الأشورى الوسيط.

3 - العهد الأشورى الحديث.

وفيما يلى نبذة عن كل منها:

أ - العهد الأشورى القديم (4000 / 3000، 1595 ق.م):

يبدأ هذا العهد بتأسيس مدينة أشور في حوالى أواخر الألف الرابعة أو أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد وينتهى في نهاية حكم مملكة بابل القديمة سنة 1595ق.م [1] ولم يكن للأشوريين كيان سياسى ثابت في هذا العهد لاسيما خلال الألف الثالثة قبل الميلاد، ففى عهد المملكة الأكدية خضع الأشوريين للحكم الأكدى [2]، ثم استقل

(1) انظر ما تقدم عن الإمبراطورية البابلية القديمة.

(2) انظر ما تقدم عن هجرة الأكديين والإمبراطورية الأكدية.

بعض أمرائهم وفى أوائل العهد البابلى القديم (سلالة بابل الأولى) وكونوا مملكة مستقلة باسم مملكة آشور إلا أنه بعد ظهور حمورابى (1792 - 1750 ق. م) قضى على استقلالها.

ب ـ العهد الأشورى الوسيط (1595 ـ 911 **ق.م**):

لقد عانى الأشوريون ظروفا حرجة في هذا الدور، ولكن على الرغم من تعرضهم لهجمات القبائل الأرامية وغزو الشعوب الجبلية كالحوريين والحيثيين [1]، تغلبوا على الشدائد وخرجوا بعدها أقوياء منتصرين محافظين على كيانهم السياسى، وقد ظهر هذا الدور عدد من الأمراء الأشوريين الأقوياء منهم آشور أوبلـــط الأول (1365 - 1330 ق.م) الذي قضى على الحوريين وضم مملكتهم (ميتانى) إلى الدولة الأشورية، وقد توسعت المملكة الأشورية في عهد أداد نيرارى الأولى (1300 ق.م) حتى الفرات وشمالا حتى كركميش (جرابلس الحالية). وفى زمن سلمنصر الأول (1276 - 1245 ق.م) اتسع نفوذ الدولة الأشورية شرقا في المنطقة الجبلية فضلا عن امتداده إلى الغرب والجنوب. ثم بعد انتكاس دام زهاء 130 عاما أعاد الملك تغلات بلاسر الأول (1115 - 1077 ق.م) إلى المملكة هيبتها وسلطانها وامتدت فتوحاته إلى الأقطار الشرقية والشمالية، ثم تولى بعده ملوك ضعفاء تدهورت أحوال المملكة في أيامهم، فانتهزت القبائل الأرامية هذه الظروف لتوسيع سلطانها باتجاه الشرق فشكلت دويلات أرامية قوية في سورية وفى العراق بلغت ذروة ازدهارها في القرنين الحادى عشر والعاشر [2]، وقد استمر دور الانتكاس هذا في بلاد آشور حتى ظهر ملوك استطاعوا إعادة كيان الدولة وتأسيس جيش قوى كان نواة الجيوش الغازية في العهد الآشورى الحديث على أثر تسلم الملك " أداد نيرارى الثانى " الحكم سنة 911 ق.م.

ج ـ العهد الآشورى الحديث (911 ـ 612 **ق.م**):

يقسم هذا العهد إلى دورين: الإمبراطورية الأولى، ثم الثانية تفصل بينهما فترة انتكاس، وينتهى هذا العهد بسقوط نينوى عاصمة الأشوريين الأخيرة عام 612 ق. م، وبذلك يكون قد استمر هذا العهد ثلاثة قرون كاملة بلغ عدد الملوك الذين حكموا فيه 16 ملكا دونوا أخبارهم وحملاتهم العسكرية ورحلاتهم

(1) انظر ما يلى عنهم.
(2) انظر ما تقدم عن هجرة الأراميين.

وإنجازاتهم الإعمارية، وقد تمكن الأشوريون خلال هذه الفترة من إعادة توسيع ممتلكاتهم فأسسوا إمبراطورية سامية عظيمة، وقد بلغت ن القوة العسكرية بحيث سيطرت في ذروة اتساعها على منطقة الشرق الأوسط كلها ومن ضمنها آسيا الصغرى وسواحل إيجة ومصر والخليج العربي وعيلام، هذا عدا فتوحاتهم للمناطق الجبلية في الشرق والشمال حتى بلاد أرمينية.

1 ـ الامبراطورية الأشورية الأولى: 911 ـ 824 ق.م:

تمتد هذه الفترة بين سنتى 911 و 824 ق.م حكم فيها أربعة ملوك كان أشهرهم " آشور ناصر بال الثانى " وقد حكم من سنة 884 إلى سنة 859 ق.م فقام بتنظيم الجيش الآشورى وتدريبه مما ساعده على توسيع فتوحاته في المناطق الجبلية الشرقية والشمالية وتوطيد الأمن في أطراف المملكة ومستعمراتها، وقد استولى على اثنتى عشرة دولة صغيرة وعاد من حروبه بمغانم كثيرة، وكان من بين الأقاليم التي أخضعها الموانئ الفينيقية في حوض البحر المتوسط والمدن الأرامية ومنها دمشق.

وقد خلف " آشور ناصر بال " في الحكم ابنه " شلمنصر الثالث " 859 - 824 ق.م، فورث عن أبيه إمبراطورية شاسعة برهن على أنه كفء للمحافظة عليها ودعم نفوذه فيها بل وعلى توسيعها أيضا، فتمكن من إخضاع الأراميين والفينقيين وإسرائيل للجزية كما قهر بلاد بابل في حملتين قام بهما ضدها.

وحدث في السنين الأخيرة من حكم شلمنصر أن ثار عليه أحد أبنائه فعرض المملكة الأشورية إلى فقدان هيبتها في الداخل والخارج، واستغرقت الثورة أربع سنوات وانتهت بموت شلمنصر سنة 824 ق.م.

2 ـ فترة انتكاس الامبراطورية الأشورية: 824 ـ 745 ق.م:

لقد سببت الحرب الأهلية تصدعا في جسم الإمبراطورية الأشورية فكانت بداية فترة انتكاس تقلص خلالها النفوذ الأشورى وانسلخت أكثر الأقاليم التابعة عن سلطة الدولة الأشورية، وقد دامت هذه الفترة حوالى ثمانين عاما، وقد حكم في هذه الفترة خمسة ملوك انهمكوا في إخماد ثورات الأقاليم حتى تولى زمام الحكم الملك " تجلات بلاسر الثالث " فأعاد إلى المملكة سلطتها وأنقذها من الدمار، فكان ذلك نهاية فترة انتكاس وبداية عهد جديد تكونت فيه أعظم إمبراطورية - هى الإمبراطورية الأشورية الثانية.

3 ـ الامبراطورية الأشورية الثانية: 745 ـ 612 ق.م:

يبدأ هذا العهد بتسلم تجلات بلاسر الثالث زمام الحكم سنة 745 ق.م وقد استمر حكمه ثمانى عشر سنة تمكن خلالها من استعادة نفوذ المملكة الأشورية بعد فترة الانتكاس، وحكم خلال فترة الإمبراطورية الثانية هذه ستة ملوك من ضمنهم تجلات بلاسر بلغت الإمبراطورية في عهدهم أوج عظمتها واتساعها خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد بحيث ضمت جميع أراضى الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر، ولم تكتف بذلك بل وسعت نطاق سلطتها وسيطرتها حتى شملت البلاد الجبلية الشمالية والشرقية وما وراءهما، والذى يعنينا هنا من بحث هذه الإمبراطورية بوجه خاص الدور الرئيسى الذي لعبته في القضاء على مملكة إسرائيل نهائيا وسبى سكانها اليهود إلى أماكن بعيدة.

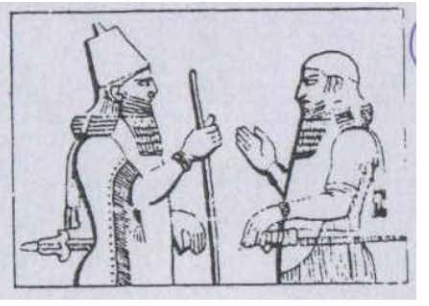

التصوير رقم (43)

الملك سرجون الثاني، ملك آشور (722 – 705 ق.م) مع وزيره – من آثار خرساباد

ومن الحملات التي شنها تجلات بلاسر حملته على مملكة أرام فاستولى على عاصمتها دمشق سنة 732 ق.م وسبى أهلها وقتل ملكها رصين ثم توجه إلى إسرائيل فاستولى على كل أرض فلسطين وسبى اليهود إلى آشور تاركا لهم مدينة السامرة.

وفى عهد شلمنصر الخامس، خلف تجلات بلاسر، جرد هذا الملك حملة على إسرائيل أيضا فحوصرت عاصمتها السامرة ثلاث سنوات وفى نهاية عام 722 ق.م تم احتلال المدينة على عهد سرجون الثانى خلف شلمنصر، وبذلك تم القضاء على مملكة إسرائيل نهائيا.

التصوير رقم (44)
الملك أسرحدون (681 - 669 ق.م)
يجذب الملك ترهاقة ملك مصر والملك بعل صور بحبل
نفذ من خلال شفتيهما مسلة عثر عليها في أطلال شمال (زنجرتى)

ومن أهم حملات سنحاريب (705 - 681 ق.م) خلف سرجون الثانى حملته على مملكة يهوذا التي بقيت بعد قضاء شلمنصر الخامس وسرجون على إسرائيل تنتظر دورها، وعلى الرغم من إسناد مصر ليهوذا فقد انتصر سنحاريب على قواتهما واحتل مدينة يهوذا وحاصر أورشليم ولم يفك الحصار عنها إلا بعد أن تسلم الجزية من ملك يهوذا.

وفى عهد أسرحدون بن سنحاريب (681 - 669 ق.م) جهز هذا الملك حملتين على مصر وتمكن في الحملة الثانية من الاستيلاء على الدلتا المصرية ومن ضمنها " ممفيس " العاصمة المصرية الشهيرة وعلى أكثر مدن مصر العليا. وبذلك يكون أسرحدون قد فاق أسلافه من ملوك آشور شهرة بسبب غزوه لمصر وانتصاره عليها، وهى أقوى دولة في الشرق القديم نازعت نفوذ الأشوريين في سورية وفى فلسطين طيلة مدة الحكم الأشورى، ولما ثار ترهاقة ملك مصر جهز آشور بانيبال خلف أسرحدون (669 - 626 ق.م) جيشا قويا وحارب ترهاقة وتمكن من فتح

ممفيس من جديد ولحق به حتى مصر العليا واستولى على طيبة العاصمة الجنوبية لمصر وبذلك خضعت مصر جميعها للحكم الآشورى (انظر المرتسم رقم 10).

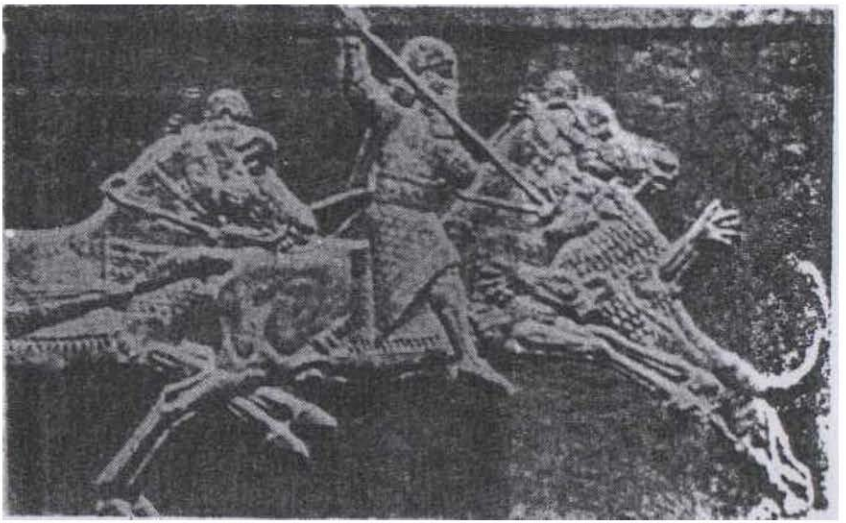

التصوير رقم (45)

منظر لصيد الأسود نقش يمثل آشور بانيبال يصيد أسد ويسدد له ضربة من طرفيه

د ـ نهاية الدولة الأشورية:

ثم حدث بعد وفاة آشور بانيبال منازعات على العرش أوهنت جهاز الحكم الأشورى فانفصلت المقاطعات البعيدة كمصر والمدن الساحلية في فلسطين وسورية وبلاد أرمينية عن المملكة الأشورية، وكذلك انتهزت بابل الفرصة وانفصلت عنها واستقلت بزعامة الأمير الكلدانى (نبوبولاسر) حيث أسست سلالة جديدة مستقلة عرفت بالسلالة البابلية الأخيرة أو المملكة الكلدانية. وقد استطاع " نبوبولاسر " بالتضامن مع ملك الماذيين " كى إخسار " من دحر القوات الأشورية، وعلى الرغم من المقاومة العنيفة سقطت " نينوى " عاصمة الأشوريين عام 612 ق.م، فنهبت ودمرت ومات آخر ملوكها وسط النيران في قصره، وبسقوط نينوى وموت آخر ملوكها كانت نهاية الدولة الأشورية [1].

(1) انظر المراجع الآتية في تاريخ الأشوريين.

H.G. Guterbock, "Babylonia and Assyria", Enc. Brit. 1965, Vol. II. pp. 951 - 979; B.Meissner, "Babylonien und Assyrien", 2vols.

هـ ـ الحضارة الأشورية:

إن الدولة الأشورية بنت وجودها على أساس عكسرى حربى فحملها ذلك على استخدام الخيل والمركبات الحربية وابتداع المنجنيق وأنواعه، وبحكم احتكاك الأشوريين بالشعوب والأمم المتحضرة كالحيثيين والميتانيين والعموريين والأراميين والفينيقيين والأرمن تمكنوا من صنع الآلات المعدنية المصنوعة من الصفر (النحاس الأحمر) ثم توصلوا إلى استعمال الشبه (البرونز) في أثناء الألف الثانية قبل الميلاد بكثرة وبدؤوا منذ ذلك التاريخ يصنعون أسلحتهم وأدواتهم من هذا المزيج، ثم استعملوا بعد ذلك الحديد في صنع الأسلحة إذ تعلموا صناعة من الحيثيين الذين سبقوهم في إتقان استخلاصه وصناعته حيث كانوا يستخرجونه في الشمال الشرقى من آسيا الصغرى من مناجمه ونشروا استعماله في جميع بلاد الشرق الأدنى منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهذا ما مكنهم من التوسع في القرون التالية.

وقد ساعدتهم فتوحاتهم على توسيع تجارتهم فحدق تجارهم أساليب التجارة وعاش كثيرون من التجار في محلات أنشؤوها في عدة أماكن في جنوب شرقى آسيا الصغرى.

وقد اشتهر الأشوريون في قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية فيطبعونه بطابعهم الخاص بمنتهى الدقة، وذلك مما حملهم على الاهتمام بالفنون الجميلة المختلفة والأدب، فأتقنوا فن النحت والتصوير واقتبسوا الكثير من الثقافة البابلية، ولا أدل على اهتمامهم بالناحية الأدبية والثقافية مما تركوه من ميراث حضارى في خزانة الكتب (ألواح الطين) التي أنشأها الملك أشور بانيبال، وقد عصر على زهاء خمسة وعشرين ألف رقيم من رقمها في حفائرهم تبحث في المدن والفنون والآداب والشئون الأخرى وهى محفوظة في المتحفة البريطانية حاليا.

وصفوة القول: إن الأشوريين تركوا لمن خلفهم من أمم جاءت بعدهم تراثا حضاريا مجيدا على الرغم مما كانوا يتصفون به من طبع غليظ وقسوة شديدة في

1920 - 25; S.Smith", Early History of Assyria", 1928; Olmstead, "History of Assyria", 1923; F.D Pallis, "The Antiquity of Iraq". 1956, Cambridge Ancient History'.

حروبهم [1].

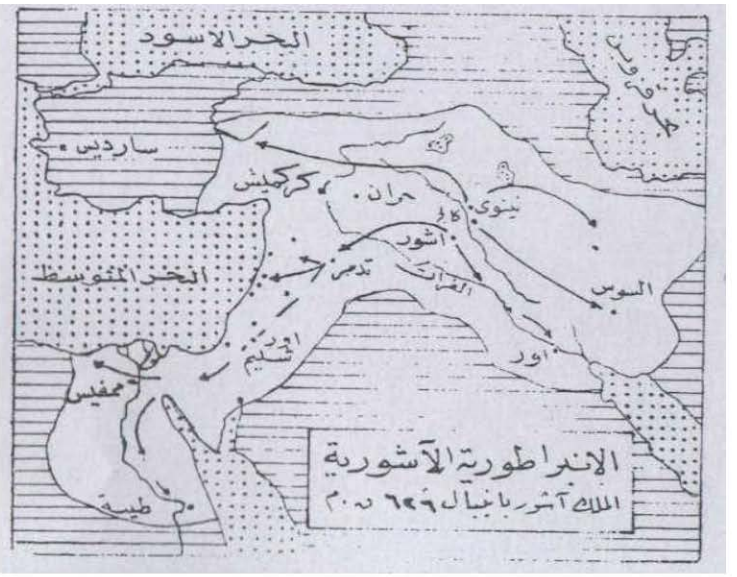

المرتسم رقم (10)

9 ـ الكلدانيون (الأراميون) وتأسيس الامبراطورية الكلدانية (رابع امبراطورية سامية)

يرجع علماء الآثار وطن الكلدانيين الأصلي إلى شواطئ الخليج العربي في جنوب العراق، حيث أسست هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو ربما قبل ذلك سلالة الأمراء التي عرفت عند المؤرخين بسلالة القطر البحري أو " سلالة بابل الثانية " التي كانت بالدرجة الأولى من بقايا السموريين، وقد تمكن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم ونفوذهم على سواحل الخليج العربي وأكثر المدن السومرية والأكدية في جنوب العراق بعد أن كاد الجنس السومري يتلاشى في الجنس السامي (الأكدي والبابلي)، والكلدانيون هم من القبائل البدوية السامية وقد اشتق اسمهم من قبيلة " كلدي " ويعدهم المؤرخون فرعا من الأراميين نزحوا من سورية إلى جنوب العراق [2]، وقد ظهروا لأول مرة في عهد " شمسو إيلونا " خليفة حمورابي [3]، وكان أول ملوكهم يدعى " إيلوما إيلو " الذي

(1) جيمس هنري بريستد، " انتصار الحضارة "، ترجمة أحمد فخري.
(2)انظر ما تقدم عن هجرة الأراميين إلى سورية والعراق.
(3) انظر ما تقدم عن العموريين العمالقة وتأسيسهم الإمبراطورية البابلية القديمة.

بـــــــــــــــــــــــدأ حكمـــــــــــــــــــــــــه سنة 1742ق.م، وقد مارست سلالتهم سلطة غير ثابتة على إقليم سومر وأكد حوالى قرن ونصف القرن، ثم صارت تتحدى سلطة الدولة البابلية القديمة (1894 - 1595 ق.م)، كما ظلت تتحدى ملوك بابل وأشور مدة ألف عام تلت ذلك العصر.

وقد انضم إلى القبائل الكلدانية حشود من الأراميين نزحت من سورية في فترة ضعف الدولة الأشورية ما بين سنتى 1077 و 911 ق.م وتأسست منهم دولة في جنوبى العراق في منطقة الخليج عرفت باسم " بيت ياكينى " وصاروا يتحينون الفرص لاحتلال بابل والقضاء على الحكم الأشورى فيها، فقد جرد أحد ملوكهم المدعو " مردوخ بلادان " حملة على بابل وفتحها وحكم فيها أكثر من عشر سنوات بين سنة 721 وسنة 711 ق. م وكان ذلك في بداية حكم سرجون الثانى إلا أن سرجون حاربه واستولى على بابل فهرب مردوخ بلادان إلى أقصى. ثم جهز سنحاريب خلف سرجون حملة قوية اكتسحت مدن الجنوب حتى أقصى بلاد البحر والخليج وخراب بابل ودك حصونها وفتح مياه الفرات عليها وإغراقها ليزيل معالمها وكان ذلك سنة 689ق.م. ثم قام آشور بانيبال بحملة تأديبية على بابل معالمها وكان ذلك سنة 689ق.م. ثم قام آشور بانيبال بحملة تأديبية على بابل وبلاد القطر البحرى وأخضع الأمراء المتمردين واتجه نحو عيلام التي كانت تحرضهم على التمرد فاحتل عاصمتها " السوس " وخربها. وبعد وفاة آشور بانيبال سنة 626 ق.م، انتهز سكان القطر البحرى ضعف المملكة الأشورية، فاستولى الزعيم الكلدانى المدعو " نبوبولاسر " على مقاليد الحكم في بابل سنة 625ق.م، وهو يؤمئذ حاكم بابل، وتمكن من الانفصال عن الدولة الأشورية وحالف الماذيين وساهم في الحرب التي قوضت الحكم الأشورى في البلاد سنة 612 ق.م [1]، وأسس الدولة البابلية التي دامت 73 سنة بعد سقوط نينوى [2]، وقد سميت في ثبت الملوك بسلالة بابل الحادية عشرة.

أ ـ دور الدولة الكلدانية في القضاء على مملكة يهوذا:

(1) يقول المرحوم الأب أنستاس الكرملى (مجلة لغة العرب: 2: 578): أن مؤسس دولة الكلدان (كلدة) شيخ عربى ينتمى إلى القبائل العربية، وقد ذهب سترابو إلى أن Gurney التي تقع عند العقير كانت في الأصل موضعا للكلدانيين وكانت ذات تجارة مع أهل بابل مزدهرة.

(2) انظر ما تقدم من الأشوريين وتأسيسهم الإمبراطورية الأشورية.

وقد لعبت سلالة بابل المذكورة دورا هاما في تاريخ الشرق الأدنى في القرن السادس قبل الميلاد، فقد استولت على جميع الدويلات في سورية وفى فلسطين وبلغت أوج ازدهارها في عهد نبوخذ نصر [1] (بختنصر) خليفة " نبوبولاسر " وابنه. وكان نبوخذ نصر هذا أعظم الملوك الكلدانيين قاطبة وقد دام حكمه ثلاثة وأربعين سنة (605 - 562 ق.م) والذى يعنينا هنا من حملاته الحربية الحملتان اللتان قام بهما على مملكة يهوذا والقضاء عليه وسبى اليهود إلى بلاد بابل، فقد وجه حملته الأولى سنة 597ق.م على يهوذا فاستولى على أورشليم وسبى اليهود إلى بلاد بابل ومعهم الملك " يهوياكين " وأهل بيته، وأخذ نبوخذ نصر هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية واحتل أورشليم فخربها وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت الأعيان، وقد خمن عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهود من السبى الأول بحوالى 50.000 شخص. وبعد وفاة نبوخذ نصر سنة 562ق.م، خلفه على عرش بابل ملوك ضعفاء حتى وقعت بابل لقمة سائغة بيد كورش الأخمينى، فسمح كورش لمن يشاء من اليهود بعد احتلاله لبابل بالعودة إلى فلسطين فعاد بعضهم وقد آثر آخرون البقاء (انظر المرتسم رقم 11).

المرتسم رقم (11)

ب ـ حضارة الكلدانيين:

(1) يعرف بنوخذ نصر الثانى لأن الأول هو نبوخذ نصر الذي ينتمى إلى السلالة البابلية الرابعة والذى استعاد استقلال بابل أيام حكم الأشوريين لها في القرن الثانى عشر قبل الميلاد (1124 - 1103ق.م).

أخذ الكلدانيون بالحضارة البابلية القديمة كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين، الذين نزحوا إلى سهل بابل، وأضافوا إليها كثيرا من عندهم فتحسنت الفنون والصناعات، وعنوا بالدين والآداب عناية كبيرة، وقطعوا أشواطا واسعة في علم الفلك، وظهر بين الكلدانيين حكماء متبحرون في مختلف فنون المعارف كالمهن التعليمية والعلوم الرياضية والكهنوتية، والذين توصلوا لمعرفة حساب الخسوف والكسوف، والكلدانيون هم أهول من جزأ الواحد الصحيح إلى ستين جزءا وقسموا اليوم إلى 24 ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية، وقد اشتهر من الفلكيين الكلدانيين " نبوريمانو " و " كيدينو " اللذين كان لهما الفضل في وضع أول التقاويم الفلكية في العالم، ويظن أن فيثاغورث أخذ الجدول المنسوب إليه عنهما.

ومما يذكر من حضارة الكلدانيين براعتهم في فن التطريز حتى لقد كانوا يصورون على النسيج الصور التي رسموها على جدران قصورهم، وبرغم تقليد الكلدانيين في أشياء كثيرة إلا أنهم فاقوا أسلافهم في فخامة الأبنية وأبهة الدولة وأصبحت بابل في عهد نبوخذ نصر أعظم مدينة في معمورة الأرض، وكانت بابل نبوخذ نصر هذه هى التي أدهشت أبا التاريخ هيرودوتس اليونانى بعجائبها وفخامتها وضحاتها [1].

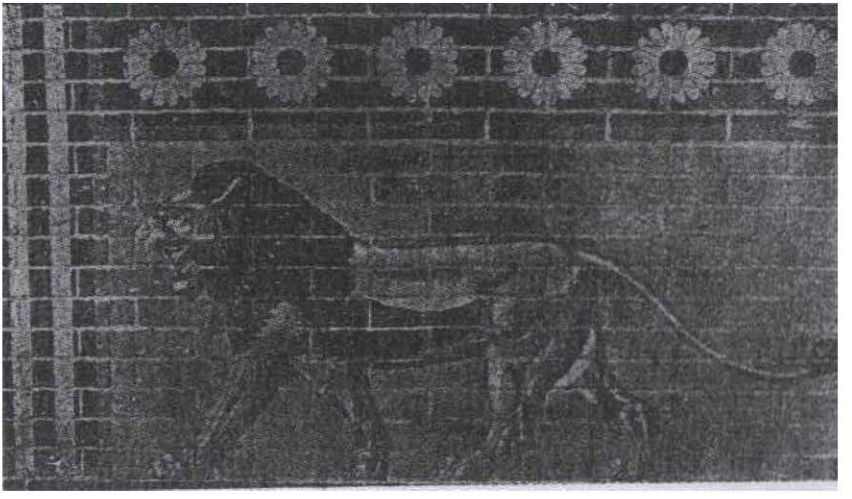

(1) انظر: " دليل الجمهورية العراقية لسنة 196، ص 164 - 173.
D.J. Wiseman, "Chronicles of Chaldean Kings", 1956.

التصوير رقم (46)
نحت بارز من الأجر المطلى بالميناء يمثل أحد الأسود التي كانت تزين
جدران شارع المواكب والقصر الملكي في بابل – من عهد الملك نبوخذ نصر

10 ـ هجرة الحوريين إلى سورية والعراق وفلسطين:

ومن الأحداث التي لعبت دورا على المسرح السياسي في الشرق الأدنى في فترة ما قبل ظهور قوم موسى هجرة جماعات من الأقوام الهندو - أوربية إلى الشرق الأدنى انحدروا من المناطق الجبلية الشمالية والشرقية منهم الحوريون والحيثيون، والحوريون هم أقوام جبليون موطنهم الأصلي " أورارتو " (أرمينية الحالية) أو الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة " وان " ورد ذكرهم في التوراة باسم الحوريين فذكرت أن بعض أسرهم كانت تسكن في منطقة جبل سعير جنوب شرقى فلسطين ثم طردهم بنو عيسو وسكنوها وصارت تعرف بأرض أدوك الذي هو عيسو [1].

وكانت بداية تحرك الحوريين من وطنهم في المنطقة الواقعة بين بحيرة " وان " وجبال زاغروس نحو بلاد آشور في حوالى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، فكانت هجرتهم هذه تعاصر هجرة الكاشيين إلى العراق وهجرة الهكسوس إلى مصر، وقد تمكن الحوريون من قهر بلاد آشور والقضاء على حكم " شمسى أداد الأول وشمسى داكان الأول " وأسسوا عددا من الإمارات في أجزاء من آسيا الصغرى دون أن ينظموا مملكة موحدة، وقد أدخل الأمراء الحوريون إلى المناطق التي استولوا عليها استخدام الخيل والعربات الحربية التي تجرها الخيول.

وقد تمكن الحوريون في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد من تأسيس مركز مهم في شمال سورية خاصة في إقليم البليخ والخابور (خابور الفرات) واتخذا هناك بلدة " واشوكانى " عاصمة لهم. وكان مركزهم الرئيسى في العراق في " أرابخا " (كركوك الحالية). وكانت لهم مدينة مهمة في جوار كركوك تسمى " نوزى " تقع أطلالها اليوم في تل " يورغان تبه " على بعد حوالى ثمانية أميال إلى الجنوب الشرقى من كركوك، ولم يمض وقت طويل حتى تمكنوا من تكوين مملكة قوية عرفت باسم " ميتانى " تمتد من " كركميش " (جرابلس حاليا) على الفرات إلى جوار نهر دجلة الأعلى مشتملة على منطقتى البليخ والخابور ومقاطعة نصيبين

(1) (تث، 2: 12)؛ (تك، 14: 6، 32: 3، 36: 8، 20).

وتشمل أيضا على إقليم أرابخا المتقدم ذكره شرقى الدجلة، وقد ثبت وجود الحوريين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد في فينيقية وفى فلسطين.

وبعد تأسيس الإمبراطورية المصرية في أعقاب طرد الهكسوس من مصر سنة 1580ق.م اصطدم الحوريون مع المصريين وذلك عندما لاحق تحوطمس الثالث (1504 - 1450ق.م) الهكسوس في سورية للقضاء على مراكزهم فيها، فنشبت حرب بين الحوريين وجيش تحوطمس سنة 1457ق.م، كان النصر فيها للثانى، ثم تحسنت العلاقات السياسية بين الحوريين والمصريين في عهد أمنحوتب الثالث (1417 - 1379 ق.م) وفى عهد الملك " أمنحوتب الرابع " المدعو أخناتون " (1379 - 1362 ق.م، بدأ النفوذ المصرى يتقلص تدريجيا في سورية، فهجم الحيثيون بزعامة ملكهم " شوبيلوليوما " وأخضعوهم [1].

وفى نفس الوقت اغتنم الملك " أوبلط الأول " ملك أشور (1365 - 1330 ق.م) هذه الفرصة فهجم هو الآخر على الميتانيين واسترجع منهم الأراضى الأشورية التي كانوا قد استولوا عليها، وقد ورد في المدونات الأشورية أن " أدادنيرارى الأول " غزا بلاد ميتانى سنة 1300ق.م، وتغلغل في أراضيهم حتى الفرات وخرب عاصمتهم " واشوكانى " كما ورد أيضا أن شلمنصر الأول استولى على ميتانى سنة 1276ق.م وضمها إلى الدولة الأشورية (انظر المرتسم رقم 12).

أما لغة الحوريين فهى لغة معقدة ليست سامية ولا هندو أوربية فيها كلمات مستعارة من لغات أقوام عدة كما أنها كانت تكتب بحروف مسمارية متنوعة أكثرها بالحروف المسمارية الأكدية القديمة. وهذه الخصائص جعلت علماء اللغة يردوا صلة للغة الحوريين ليس بلغة الأورارتو القديمة فقط بل باللغات الجورجية الحديثة وما يتبعها من اللغات القفقاسية [2].

11 ـ هجرة الحيثيين إلى شمال سورية:

أما الحيثيون فوطنهم الأصلى هو بلاد الأناضور، إذ كانوا قد استوطنوا منذ الألف الثالثة قبل الميلاد الأرض المرتفعة المحاطة بحدود طبيعية تفصلها من

(1) انظر: ما يلى عن هجرة الحيثيين.

(2) E. A. Speiser, "Introduction to Hurrian", 1941 ; J. Puhvel, "Hurrians", Enc. Brit, vol. II, PP. 905 - 906.

الجنوب سلسلة جبال طوروس عن ساحل " قليقية " كما يفصلها من الغرب حزام آخر عن الساحل الأيجى، ويرجع الخبراء أن الحيثيين كانوا قد جاءوا إلى هذه المنطقة على هيئة موجات متعاقبة من أوربا الشرقية وعلى الأكثر من البلقان والقفقاس.

وأقدم المعلومات التي وصلت إلى أيدى الخبراء عن الحيثيين هى الكتابات التي تركها الأشوريون في المراكز التجارية التي أقاموها في آسيا الصغرى، وهى ترجع إلى القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد، وتدل هذه الكتابات على أن بلاد الحيثيين كانت مقسمة إلى دويلات من المدن المستقلة لكل منها ملكها الخاص بها. وكان أقدم ملوكها يسمون بملوك " كوسارا " ولعل اسم مركز سلالتها القديمة، وفى عهد الملك " لابارنا " الذي كان يدعى بـ " ملك كوسارا " أيضا جرى نقل العاصمة إلى " حاتوشاش " شمالا، وهى بلدة " بزغازكوى " الحالية الواقعة على بعد حوالى تسعين ميلا إلى الشرق من أنقرا.

وهذه التسمية مشتقة من " حاتو " وهو اسم أحد المقاطعات في المنطقة، ومنها جاءت أيضا تسمية " حيثيين " أى سكان " حاتو.

وتشير الكتابات التي عثر عليها إلى أن " لابارنا " اخترق جبال طوروس جنوبا وفتح شمال سورية فحمل على دويلة " يمخاد " وعاصمتها " حلبا " (حلب) إلا أنه اضطر إلى الرجوع إلى بلاده، بسبب نشوب اضطرابات داخلية في عاصمته، ويبدو أنه جرح في هذه المعارك ومات متأثرا بجراحه بعد وصوله إليها، فخلفه الملك " مورشيليش الأول " وتشير الأخبار إلى أن " ومرشيليش " هذا هجم على سورية واحتل مدينة حلب فخربها ودمرها تدميرا كاملا انتقاما لـ " لابارنا " ومن هنا امتد جنوبا فحارب الحوريين [1] وشق طريقه في أراضيهم حتى وصل إلى مدينة " مارى " التي كان قد دمرها " حمورابى " من قبل، ثم انحدر نحو بابل ففتحها وخربها وقفل راجعا إلى " حاتوشاش " عاصمته محملا بالغنائم والكنوز، وبذا كانت نهاية حكم الإمبراطورية البابلية القديمة وبداية حكم الكاشيين في العراق. وقد اختلف الباحثون في تعيين تاريخ هذه الواقعة وقد حددتها أحدث الدراسات سنة 1590ق.م.

(1) انظر ما تقدم عن هجرة الحوريين إلى سورية والعراق.

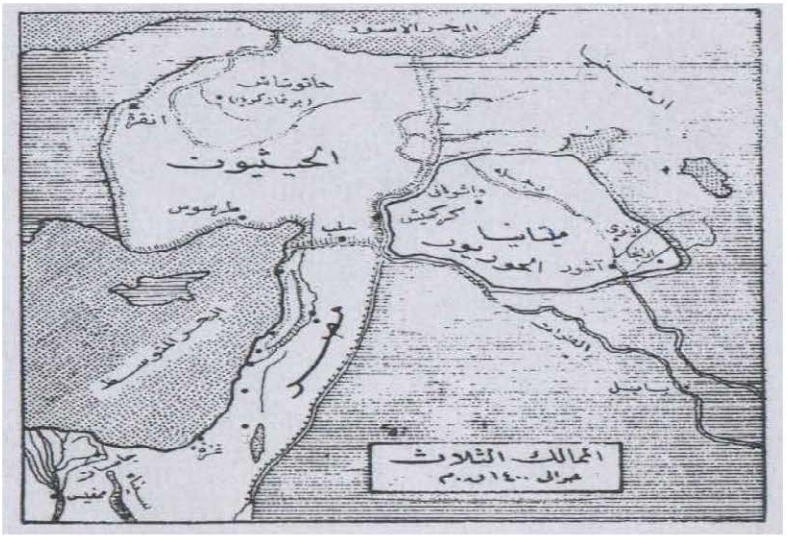

المرتسم رقم (12)

وقد تمكن الحيثيون بعد تسلم الملك " شوبيلوليوما " العرش في حوالى سنة 1375ق.م من تدمير مملكة ميتانى، فعبر هذا الملك نهر الفرات وفتح " واشوكاتى " عاصمة الحوريين، ثم واصل زحفه جنوبا حتى وصل إلى دمشق وعقد معاهدات مع رؤساء المقاطعات المجاورة واعترفوا بموجبها بسلطان الحيثيين ومنها صعد إلى كركيش " جرابلس " فاحتلها بعد حصار قصير الأمد، وعين أحد أبنائه ملكا عليها وعين ابنا آخر ملكا على حلب، وعلى أثر ذلك حدثت اضطرابات داخلية بين الأمراء الميتانيين فاغتنم الأشوريون هذه الفرصة وتحرروا من نير الحوريين واستقلوا ببلادهم، وبانقراض المملكة الميتانية أصبح نهر الفرات يمثل الحدود بين الحيثيين والأشوريين.

التصوير رقم (47)
محاربان حيثيين من مملكة الحيثيين في جوار كركميش (جرابلس)

وقد تمكن الحيثيون من تأسيس مملكة قوية في شمال سورية مركزها " كركميش " وقد امتدت فتوحاتهم غربا حتى وصلوا إلى الساحل الأيجى فضموا بلاد الليقيين والميزيين والقيليقيين إلى مملكتهم (انظر المرتسم رقم 12) وفى غضون ذلك احتدم النزاع بينهم وبين فراعنة مصر الذين كانوا يزاحمونهم على سورية وفلسطين فنشبت بينهما معارك أشهرها حرب قادش على نهر العاصى جنوب حمص (حاليا تل النبي مند) التي وقعت في سنة 1299 قبل الميلاد بين الحيثيين ورعمسيس الثانى (1304 - 1237 ق.م) كاد الحيثيون أن ينتصروا فيها، إلا أن رعمسيس تمكن من الصمود بشجاعة أمام الحيثيين حتى وصلته إمدادات جديدة فواصل القتال وانتهى الصراع بعقد صلح سنة 1269 ق.م بين العاهلين " رعمسيس " والملك الحيثى " حاتوشيلى - الثالث " مع التوقيع على ميثاق دفاع مشترك ضد أى غزو خارجى أو ثورة داخلية وقد ثبتت بموجب هذه الاتفاقية الحدود بين ممتلكات الحيثيين وممتلكات مصر عند نهر العاصى، وفى الوقت نفسه عقد فرعون على ابنة الملك الحيثى حاتوشيلى توثيقا للعلاقات الودية بين الطرفين، وقد استمرت هذه العلاقة الحسنة بين الحيثيين والمصريين خلال حكم الفرعون مرنفتاح بن رعمسيس الثانى 1237 - 1223 ق.م.

وبعد أن دامت الإمبراطورية الحيثية حوالى قرنين ونصف قرن أخذ الوهن يسرى منذ سنة 1200 ق.م في أنحائها حتى أصبحت عاجزة عن إخضاع الإمارة المتمردة فاستقلت الواحدة بعد الأخرى، وفى الوقت نفسه أخذت تضايقها هجمات

الغزاة اليونانيين في حوض بحر إيجه من جهة الغرب وهجمات الأشوريين من جهة الشرق حتى كانت على يد سرجون الثانى حيث قضى سنة 717 ق.م على آخر ما بقى من أثر لنفوذ الحيثيين في هذه البلاد بإخضاعه المنطقة بأسرها إلى حكمه.

إن اللغة الحيثية تنتمى إلى فرع اللغات الأناضولية في مجموعة اللغات الهندو أوربية وكانت في الأصل كما يرى خبراء اللغة اللغة المحلية في منطقة " حاتى " الشمالية وأصبحت اللغة الرسمية في " حاتوشاش " العاصمة، مع أن نسبة كبيرة من مفرداتها أصلها غامض وعلى الأرجح أنها ترجع إلى الأصل الأناضولى المحلى مع استعارة كلمات كثيرة من اللغات الهندو أوربية في المحيط الجديد. وكان الحيثيون يستعملون الحروف المسمارية المعروفة بالمسمارية الأكدية القديمة أخذوها من الحوريين الذين كانوا يستعملونها في أكثر كتاباتهم.

وقد ورد ذكر الحيثيين في التوراة وقد اعتبرتهم من ذرية كنعان [1] . وتشير التوراة إلى أن الحيثيين كانوا موجودين في فلسطين في زمن إبراهيم الخليل (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) فذكرت أن إبراهيم الخليل اشترى من بني حث حقل ومغارة المكفيلة في حبرون [2]. كما ذكرت أن عيسو اتخذ له زوجات من الحيثيين وأن بني إسرائيل (قوم موسى) [3]، تزاوجوا مع الحيثيين [4]. وكانت لسليمان زوجات حيثيات أيضًا [5]. وقد خاطب حزقيال أورشليم بقوله: " أبوك أموري وأمك حيثية " [6].

---

(1) (تك، 10: 15).
(2) (تك 23: 2 - 20).
(3) انظر ما يلي حول بني إسرائيل وقوم موسى واليهود في الفصلين الثالث والخامس.
(4) (تك، 26: 34)؛ (قض، 3: 5 - 6).
(5) (1 مل، 11: 1)؛ (2 صم، 11: 3).
(6) (حز، 16: 3).
انظر المراجع المختارة الآتية:

j. Garstang, "The Hittite Empire, "London 1929; O.R Gurney "The Hittites". 2nd. Ed., 1961; Puhvel, "P.Hittite" Enc. Brit., 1965, Vol. II, pp. 550 - 560; H.Schmokel, "Geschichte des alten Vorderasien", pp. 199 - 153 in Handbuch der Orietalistik, Vol. II part 3, (1945).

12 ـ هجرة الفلسطينيين إلى فلسطين:

وكان آخر من هاجر إلى أرض فلسطين " الفلسطينيون " وهم من الأقوام الإيجية " أهل السواحل " كانوا قد احتلوا بعض السواحل السورية العليا في أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد ومنها هاجموا مصر في عهد رغمسيس الثالث (1198 - 1166 ق.م) أحد ملوك السلالة العشرين المصرية، وقد بدت في بادئ الأمر صعوبة مقاومتهم لتفوقهم في أساليب القتال ومعداتهم الحربية، ولكن رعمسيس اتخذ الاحتياطات اللازمة لمجابهتهم فأعد أسطولا قويا مع جيش كبير من الوطنيين والمأجورين الأجانب، فتمكن من صدهم في معركة بحرية نشبت بينهما في حوالى سنة (1191 ق. م) [1] فاتجهوا بعد إخفاقهم في النزوح إلى مصر نحو الساحل الفلسطينى الجنوبى في القسم الذي يمتد من عزة جنوبا إلى أسفل يافا شمالا، ومنهم جاءت تسمية فلسطين التي مازالت مستعملة حتى يومنا هذا للدلالة على أرض فلسطين الحالية، وكانت المدن التي أسسوها في هذا القطاع والتى تمتد من الجنوب إلى الشمال خمس وهى: " غزة، أشقلون، عسقلان، جت، أشدود، عقرون ".

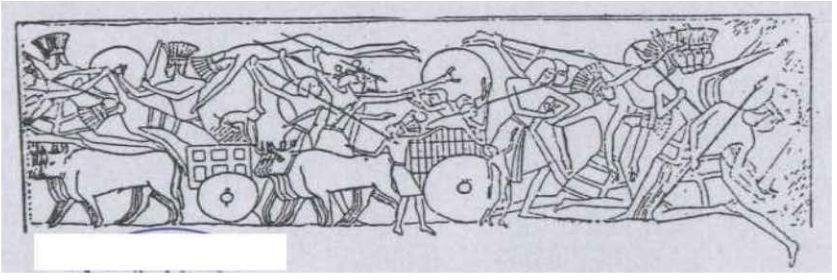

التصوير رقم (48)

المعركة التي خاضها المصريون مع الفلسطينيين على عهد رعمسيس الثالث (1191 ق.م)

وكانت مدن الفلسطينيين هذه على الساحل ماعدا مدينة " جت " التي كانت تمتد قليلا إلى الداخل[2]. وتشير التوراة إلى أن الفلسطينيين أبادوا العوبيين سكان

(1) لقد عين أولبرايت تاريخ نزوح الفلسطينيين إلى مصر سنة 1188 ق.م بدلا من سنة 1191 ق.م التي أخذ بها الباحثون. انظر:
"Journal of Near Eastern Studies", April 1944, vol. III, No.2, P. 78.

(2) (يش، 13: 3)، (قض، 3: 3)، (يش، 15: 45 - 47).

هذه القوى وسكنوا مكانهم [1]، ومما يذكر أن هؤلاء الفلسطينيين قد اندمجوا بالكنعانيين والعموريين كليا بحيث لم يعد بالإمكان تمييزهم عن العناصر الكنعانية والعمورية [2]، وفى هذا الموضوع يقول لودز أن الفلسطينيين قد (تكنعنوا) بسرعة في حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد في خلال فترة تقل عن 150 عاما بعد استقرارهم على أرض فلسطين [3]، وأن الإله الرئيس " داجون " الذي كانوا يعبدونه هو نفس راجون الذي ورد ذكره في التوراة [4]، وهو بلاشك الإله " داجان " إله الغلة الذي كان يعبده الكنعانيون.

وكان أتباع موسى في فلسطين عندما نزح الفلسطينيون إلى سواحل فلسطين الجنوبية، وكان ذلك في حوالى أواخر عهد يشوع أو فترة ما بعد يشوع مباشرة، أى قبيل عهد القضاة، ولكن يشوع لم يستطع التحرش بالفلسطينيين لأنهم كانوا متفوقين على أتباعه في معداتهم الحربية إذ كانوا يعتمدون على أسلحة من الحديد الذي أتقنوا تعدينه وصنع الدروع والأسلحة الأخرى منه [5]. وتذكر التوراة أن بنى إسرائيل (قوم موسى)[6] تمكنوا بعد عهد يشوع من الاستيلاء على غزة وأشقلون وعقرون وتخومها[7].

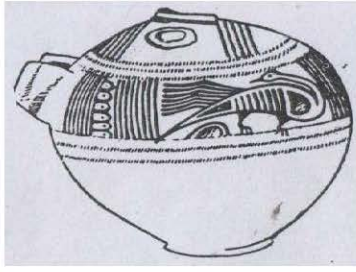

التصوير رقم (49)

نموذج من النقوش الخزفية من صنع الفلسطينيين وقد تميزوا بهذا النمط الفنى الخاص بهم ولكن الفلسطينيين عادوا فأوقعوا في أواخر عهد القضاة بالإسرائيليين

(1) (تث، 2: 23).

(2) Hitti, "Syria", PP. 184 - 185.

(3) Lods, "Israel", P. 59, 127 - 128.

(4) (1 صم، 5: 2 - 5)؛ (قض، 16: 23).

(5) (1 صم، 17: 7).

(6) انظر ما يلى عن بنى إسرائيل وقوم موسى ويهود في الفصل الثالث " تاريخ التوراة "..

(7) (قض، 1: 18).

(الموسويين) هزائم شديدة حتى أنهم استولوا على تابوت العهد [1]، وخضع الإسرائيليون إلى حكمهم أربعين سنة [2]، حتى ظهر شمشون فحارب الفلسطينيين[3]، وفى عهد صموئيل (آخر عهد القضاة) استرجع الموسويون المدن الساحلية التي استولى عليها الفلسطينيون من " عقرون " إلى " جت " واستخلص إسرائيل تخومها من يد الفلسطينيين [4]، ثم هاجم الموسويون بقيادة الملك شاؤول الفلسطينيين إلا أنهم اندحروا أمامهم وقتل الملك شاؤول وأولاده الثلاثة في المعركة [5]، ثم تقلد الحكم الملك داود خلفا لشاؤول فاستطاع هذا الملك أن يخضع أكثر المدن الفلسطينية إلى حكمه [6]، ويبدو أن الفلسطينيين عادوا فاستقلوا في عهد الانقسام بدليل إشارة التوراة إلى محاصرة الموسويين لحصن جبثون " الذي يعود للفلستينيين " [7]، ثم خضع الفلسطينيون إلى الأشوريين وصاروا يدفعون الجزية لهم في أكثر أدوار العهد الأشورى.

وأقدم ذكر للفلستينيين ورد في النصوص المصرية والأشورية فقد سميت بلادهم باسم " بالستو " أو " بيليستو " وهو نفس الاصطلاح اليونانى " فلستيا " الذي أصبح " بالستينا " (فلسطين).

وكان المؤرخ هيرودوتس أول من ذكر اسم فلسطين بقوله ذلك الجزء من سورية المعروف بفلسطين (الكتاب الأول، الفصل 105) [8]. وقد حدد الباحثون موضع وطن الفلسطينيين هذا في " ليقية " في سواحل آسيا الصغرى مع احتمال اتصالهم بجزيرة كريت وقد كثر ذكر الفلسطينيين في التوراة لما كان لهم من دور تاريخى مهم في حياة الموسويين في أوائل أيامهم في فلسطين، حيث كان الفلسطينيون يزاحمونهم على أرض فلسطين وبقوا مصدر خطر دائم عليهم في جميع أدوارهم التالية، فقد سمتهم التوراة " كفتوريين " وذكرت أن وطنهم هو

(1) (1 صم، 5: 1)، انظر ما يلى عن تابوت العهد في الفصل الثالث.
(2) (قض، 13: 1، 10: 7).
(3) (قض، 15: 14 - 16).
(4) (1 صم، 7: 14).
(5) (1 صم، 31: 6).
(6) (2 صم، 8: 1).
(7) (1 صم، ص 31.
(8) P. Hittites "Lebanon in History", P. 91.

جزيرة " كفتور " وهو مرتبط مع وطن الكريتيين الذين أهلكهم الرب مع بقية أهل ساحل البحر. كما أشارت إلى أن هؤلاء الكفتوريين أبادوا سكان القرى التي احتلوها في جنوب فلسطين وهم العويون كما فعل الأدوميون والعمونيون بالحوريين والرفائيين فأخرجوهم من ديارهم وسكنوا مكانهم [1].

وقد وصلت إلى أيدى علماء الآثار معلومات وافية عن الفلسطينيين في الكتابات والنقوش التي سجلتها رعمسيس الثالث على جدران معبد " آمون " في مدينة " هابو " غربى مدينة " طيبة " وقد ملأت هذه الكتابات والنقوش آلافا من الأقدام المربعة كلها منحوتة على الحجر وقد احتوت على سجل كامل لحملات الفراعنة وحروبهم.

التصوير رقم (50)

محاربان فلسطينيان كما ورد تصويرهما في النقوش المصرية

عن كتاب " قصة التوراة " ص 295

وقد شغلت تسجيلات رعمسيس الثالث حيزا كبيرا في هذه الكتابات والنقوش عن انتصاراته في البر والبحر على حشود الفلسطينيين الذين غزوا مصر في عهده، ويستبان من هذه السجلات أن الفلسطينيين قد أثاروا الرعب والفزع في صفوف المصريين لقدراتهم وتمرنهم على القتال في البحر والبر، فيصفهم رعمسيس بقوله: " لم يستطع أى قطر من الأقطار أن يصمد أمام قوتهم القاهرة...

(1) (إر، 47: 4)، (عا، 9: 7)، ؛ (تث، 2: 22 - 23).

فقد دمروا أرض الحيثيين وكود [1] وكركميش وقبرص كلها دمرت بضربة واحدة... سحقوا شعوبها ودمروا أراضيها ولم يتركوا لها أثرا حتى أصبحت وكأنها لم تكن.. وحملوا على مصر، وكانوا قد بسطوا أيديهم على جميع البلاد إلى أبعد أطراف العالم وقلوبهم عالية عامرة بالثقة بأنفسهم. ولكن تخطيطنا سينجح... " ويصف رعمسيس بعد ذلك المعركتين اللتين خاضهما معهم أحداهما برية والثانية بحرية وانتصاراته عليهم مع تصاوير توضيحية لهذه المعارك، ويستبان من هذه التصاوير أن الفلسطينيين يتميزون بلباس الرأس الملئ بالريش وسحنتهم هى أقرب إلى الأوربيين وبوجه خاص إلى اليونانيين ومعهم عربات ذات عجلات مدورة من قطعة واحدة تجرها الثيران المحدبة الضخمة (انظر التصويرين 48، 50) [2].

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدكتور معروف الدواليبي نشر مقالاً في مجلة الأديب البيروتية في عددها لشهر إبريل 1974 (الجزء 4 السنة 33) ص 2 - 3 ذهب فيه إلى أن البحَّاثة الأثاري الفرنسي هيلير دي باراتون (Hilaire de Barution) وضع كتابًا بعنوان " الأريتروسكيون في مغربنا وفي أصولنا الفرنسية " (Les Gtrueques en natre Occident et Nos Origines Francaises).

جاء فيه: أن الإيتروسكيين هم فرع من الفينيقيين السوريين وأن اسم فلسطين هو أحد أسماء مدنهم وأن معنى الإيتروسك في اللغة المصرية القديمة (بحارة النيل) وأن معنى الفلسطينيين الجنود والمحاربون.

وأضاف هذا الباحث قوله أن هؤلاء الفينقيين السوريين يحملون أسماءً كثيرة مختلفة، ثم أخذ يعدد هذه الأسماء ومنها الفلسطينيون الذين كانوا يمتهنون الجندية، وينتهي الدكتور الدواليبي إلى أن الفلسطينيين هم الجبارون الذين ورد ذكرهم

(1) ساحل قيليقية في شمال سورية.

(2) أنظر:

S.A Cook, "Philistines", Enc. Brit., 1965, Vol 17, pp. 737 - 738; W. Keller, "The Bible as History", pp. 169 - 182; Hitti, "Syria". 180 - 185l; G.Bonfante, "Who were the Philistines?", Am. Jour of Archaeology, Vol. 50 (1946), p. 251; R.A.S Macalister, "The Philistines". 1913.

في التوراة وفي القرآن الكريم، أي العمالقة، ثم يؤكد أن الفلسطينيين عرب لاشك فيهم وهم كنعانيون فينيقيون سوريون وأنهم هم الجبارون الذين عناهم القرآن الكريم. هذا مع العلم أن الخبراء قاطبة متفقون على أن الفلسطينيين قوم مجهول الأصل من حيث العنصر واللغة جاؤوا من سواحل آسيا الصغرى التي تضم ليديا وإيجيا وشمال سورية فغزوا الساحل المصري في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد وتمكن المصريون في عهد رعمسيس الثالث من صد غاراتهم فلجؤوا إلى السواحل الجنوبية من فلسطين حيث أسسوا مدنهم المعروفة.

ويتفق الخبراء على أن هؤلاء الفلسطينيين اندمجوا بالمجتمع الكنعاني بسرعة بحيث لم يمر قرن واحد على وجودهم في فلسطين حتى اندمجوا كليًا بالشعب الكنعاني واقتبسوا لغته وثقافته، والمهم هنا أن أقدم ذكر لاسم فلستا وصل الينامن وصل إلينا في النصوص المصرية التي ترجع إلى عهد رعمسيس الثالث في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد وردت صور هؤلاء القوم على النقوش المصرية ، أما الأيتروسكيون فالمعروف عنهم أنهم استقروا في القسم الشمالي قبل الميلاد وما يليه حتى القرن الثالث بعد الميلاد، وقد اختلف الباحثون في تحديد أصل الأيتروسكيين فأعلن هيرودوتس أنهم جاؤوا من ليديا أو من السواحل اليونانية في آسيا الوسطى ثم أصبحوا مواطنين في المنطقة التي استقروا فيها، أما لغتهم فمن أصل مجهول أيضًا لأنها لا تنتمي إلى اللغات الهندوأوروبية، وحتى لو فرضنا أن اسم فلسطين ورد بين أسماء مدنهم فليس في ذلك أي دليل على ارتباط هذا الاسم بالكنعانيين أو الفينيقيين أو العمالقة لأن التسمية متأخرة وإن دلت على شيء فإنما تدل على أنها مأخوذة من التسمية القديمة الواردة في النصوص المصرية التي ترجع إلى ما قبل سبعة قرون.

13 ـ الهجرات السامية العربية المتأخرة:

أ - الأنباط:

ومن الموجات السامية المتأخرة التي نزحت من الجزيرة العربية موجة الأنباط أو النبط وهم قبائل بدوية من عرب شمال الجزيرة انتشرت منذ القرن السادس قبل الميلاد في البادية التي في شرقي المملكة الأردنية الحالية واحتلت المناطق التي كانت تحت سيطرة الكنعانيين والأراميين، كما احتلت أراضي

الأدوميين في شبه جزيرة سيناء وجنوب فلسطين، ثم أنشأ هؤلاء دولة الأنباط العربية التي امتدت مستوطناتها في أوج توسعها من نهر الفرات في المنطقة المتاخمة لبلاد الشام وتنزل حتى تتصل بالبحر الأحمر، وبذلك تكون قد ضمت دمشق وسهل البقاع والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران وأدوم ومدين وساحل البحر الأحمر، وقد وصلت مساكن بعضهم إلى دلتا النيل والمناطق الخصبة المشرفة على البحر الأبيض المتوسط، ثم سرعان ما تحضروا وأخذوا يفلحون الأرض ويزرعونها وأنشؤوا المدن والقرى ومنها عاصمتهم (بطرا) في جنوب غربي وادى موسى في شرقى الأردن التي بلغت أوج ازدهارها في القرن الرابع قبل الميلاد، وهكذا صار النبط يمارسون مختلف الحرف وفى طليعتها الاشتغال بالتجارة ونقل البضائع بين مختلف الأمكنة، فسيطروا على طرق القوافل التجارية في ذلك الزمن وأهمها طريق اليمن والعربية الجنوبية الموازى للبحر الأحمر ومنها كان يتفرع الطريق إلى مصر والشام وغزة والمدن الفينيقية على البحر الأبيض المتوسط، وهناك طريق تجارى كان يصل الخليج العربى بمدينة " بطرا " لنقل بضائع الهند وما وراء الهند وحاصلات إيران والعربية الشرقية لتوزع منها في الشام ومصر وموانئ البحر الأبيض المتوسط. وقد تعلموا استغلال مناجم النحاس والحديد القديمة في منطقة " أدوم " في صنع المواد المهمة في مختلف شؤون الحياة، ومنهم انتقلت المصنوعات النحاسية والحديدية المصنوعة في بلاد اليونان أو الشام أو في البتراء إلى اليمن. وكانوا يستخرجون (الأسفلت) من سواحل البحر الميت الشرقية فيحملونه إلى مصر لبيعه إلى المصريين الذين كانوا يشترونه لاستعماله في التحنيط وقد در على النبط أرباحا فوق أرباح وزاد في ثروتهم المادية فاكتنزوا الذهب والفضة بكميات كبيرة.

وقد اقتبس النبط من الأراميين ثقافتهم وكتبوا بكتابتهم وتأثروا بلغتهم حتى غلبت الأرامية عليهم. أما لهجتهم العربية الأصلية التي كانوا يتكلموا بها فلم يعثر على غير نصوص قليلة منها، وللهجتهم هذه أهمية خاصة لأن اللهجة التي نزل بها القرآن الكريم متطورة من اللهجة النبطية العربية المتأخرة التي تعتبر من اللهجات العربية الشمالية، وخط النبط قريب جدا من خط كتبة الوحى، وهو مأخوذ من القلم الأرامى القديم وقد سمى بالقلم النبطى.

ومن الحروب التي خاضها الأنباط لتوسيع نفوذهم وسلطانهم في الشرق الاشتباك الذي وقع بينهم وبين الهيرودبين في فلسطين في عهد الملك النبطى

عبادة الأول (90 ق.م) فانتصر الأخير فيه واستولى على جنوب شرقى سورية بما فيها حوران وجبل الدروز. ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثالث (87 - 62 ق.م) وقد تغلب هذا الأخير في حملة قام بها على فلسطين فتمكن من محاصرة القدس واحتلال دمشق، وقد حاول الرومان بقيادة " بومبى " احتلال بلاد الأنباط ولكن الملك الحارث الثالث استطاع الصمود في وجههم والاحتفاظ بنفوذه في جنوب فلسطين، وشرقى الأردن وجنوب شرقى سورية وشمال الجزيرة. وقد ظلت العلاقات طيبة بين الأنباط والرومان مادامت بطرا المحطة الرئيسية على طريق القوافل التجارية حتى تضاءلت أهميتها على أثر تحول طريق التجارة الخارجية المار بغربى الجزيرة إلى العراق مما أدى إلى أن تفقد بطرا أهميتها كمركز يعتمد على التجارة الغربية. وفى سنة 106م أرسل الإمبراطور تراجان حملة ضد الأنباط احتلت فيها بطرا دون مقاومة، وبسقوط بطرا بيد الرومان قضى على دولة الأنباط وجعلت بلادها جزءا من المقاطعة العربية التي أنشأها الرومان في الطرف الجنوبى من سورية للحماية من هجمات بدو الجزيرة العربية، وفى الأخبار التي وصلتنا عن الملوك الأنباط أسماء أحد عشر ملكا حكموا 275 سنة في الفترة الممتدة بين سنة 169 ق.م وسنة 106 ب. م [1].

ب ـ التدمريون:

وعلى أثر انهيار دولة الأنباط وسقوط بطرا تحول طريق التجارة من غربى الجزيرة إلى العراق فبرزت في الميدان دولة عربية جديدة مركزها تدمر احتلت محل بطرا في السيطرة على طرق المواصلات التجارية في الشرق الأدنى، وتقع مدينة تدمر هذه في وسط الصحراء في منتصف الطريق بين دمشق والفرات على أرض منبسطة تحيط بها جبال تفصلها عن البادية على بعد 150 ميلا عن دمشق نحو الشمال الشرقى ونحو مائة ميل عن حمص.

إن معلوماتنا عن حضارة تدمر تبدأ من العصر الرومانى حيث تتوفر وثائق تاريخية من ذلك العصر التي تزودنا بتفاصيل عن تاريخ المدينة وتطورها، إلا أن هناك ما يدل على أن تدمر كانت محطة تمر بها القوافل منذ القرن السادس قبل

(1) انظر:
R.H. Simpson, "Nabateans", Enc. Brit., 1965, Vol. 15, pp. 1143 - 1144; P.Hitti, "History of Syria" pp. 375 - 388.

الميلاد حيث كانت على الطريق الرئيسى بين اليمن والحبشة من جهة وبين العراق والهند من الجهة الأخرى، ولكنها لم تنل مكانتها كمركز تجارى هام إلا بعد سقوط بطرا في أوائل القرن الثانى للميلاد فتحولت الطرق الرئيسية إليها وأخذت تدريجيا تحتل الصدارة في الأهمية كمركز تجارى رئيسى في الشرق الأدنى، وما لبثت أن بلغت أوج ارتقائها وازدهارها في القرن الثلاث للميلاد.

وكانت غالبية أهل تدمر تتألف من مجموعات من القبائل العربية وردت أسماؤها في المدونات الرومانية وهى أسماء سامية مع أن بعضها كان يحمل أسماء إغريقية، ومن الثابت أن الأسر التدمرية ذات النفوذ عرب، أصلهم من البادية من بقايا العمالقة كالنبطيين مارسوا الأعمال التجارية فغلبوا على أهل المدن حتى صاروا ملوكا. وبفضل التبادل التجارى مع مختلف الأمم انتشرت الأرامية والإغريقية في معظم وثائقها كما استعملت الرومانية في مكاتباتهم الرسمية في العصر الرومانى على أن الأرامية أصبحت هى الغالب استعمالها في المخابرات الرسمية والتدوين كما اتخذها النبطيون من قبل. وقد اتخذ التدمريون القلم المسمى بالقلم التدمرى وهو مشتق من القلم الأرامى.

وقد أطلق الإسكندر الأكبر على تدمر اسم بالميرا أى مدينة النخل فعرفت منذ ذلك الحين عند اليونان واللاتين بهذا الاسم، وأول ذكر ورد لتدمر في الكتابات القديمة يرجع إلى عهد الملك الأشورى تجلات بلاسر الأول (1115 - 1077ق.م) فسميت تدمر العموريين، كما ورد ذكرها في أخبار حملات نبوخذ نصر الثانى (605 - 562ق.م) على فلسطين ومصر. وأول كاتب كلاسيكى أشار إلى مدينة بالميرا هو بلينوس فذكر " أنها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز، أرضها خصبة، وبها ينابيع وعيون، تحيط بحدائقها الرمال، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف، بعيدة المسافات، وتقع بين إمبراطوريتين عظيمتين، إمبراطورية روما وإمبراطورية الفرثيين ولهذا استرعت أنظار الأولين " [1].

وقد ورد ذكر تدمر في التوراة [2] باعتبارها إحدى المدن التي بناها الملك

(1) الدكتور جواد على " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج3، ص 74 - 75.

(2) ورد ذكر " تدمر " (بهذه الصيغة) مرتين في الكتاب المقدس (الترجمة العربية)، مرة في (1 مل، 9: 18) وأخرى في (2 أخ، 8: 4)، أما في " توراة أورشليم المقدسة ":

سليمان [1] غير أن أكثر الباحثين يرون أن المقصود بتدمر هنا " تامار " البلدة الكنعانية القديمة التي تعود إلى زمن إبراهيم الخليل [2] والتى كانت تقع في مكان تحدد التوراة موضعه إلى الجنوب الشرقى من أرض يهوذا والجنوب الغربى من بحر الميت [3]. وليس مدينة " تدمر " الشهيرة بمدينة النخل " بالميرا " كما دعاها الإسكندر المقدونى، ومن ثم بعاصمة أذنية وذينب [4].

وتعليل سبب الوقوع في هذا الخطأ يعود إلى أحد أمرين، فإما أن يكون كتبة سفرى أخبار الأيام، أو ربما الكتبة الذين سبقوهم، يجهلون فعلا مكان وقوع " تامار " وهو أمر بعيد الاحتمال، فظنوها " تدمر " التي كانت آخذة في التألق والإشراق في ذلك الحين فكتبوا " تدمر " مكان " تامار " وإما أن يكونوا قد ارتكبوا هذا الخطأ عن عمد،

(La ste Bible de Jerusalem) Ed. Le Cert, Paris, 9161.

باللغة الفرنسية فإنها لم تردبصيغة Tadmor سوى مرة واحدة وذلك في (2 أخ، 9: 18)، بينما وردت بصيغة Tamar في (1مل، 9: 18).

(1) غير أن الملك سليمان لم يبن (بمعنى البناء والإنشاء) أية من المدن المذكورة في المرجعين المذكورين أعلاه لكون تلك المدن قد سبقت في وجودها زمن الملك سليمان بمئات السنين وربما وصل بعضها إلى الألف سنة أو أكثر، فهذه هي التوراة ذاتها تشهد، على سبيل المثال أن فرعون ملك مصر صعد إلى كنعان وأخذ مدينة جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين سكان المدينة وأعطاها مهرًا لابنته أمرأة سليمان، (1 مل، 9: 16)، والصحيح هو أن أعماله فيها قد اقتصرت على الترميم والتجديد وعلى أكثر الاحتمالات إضافة أجزاء إليها، و " توراة أورشليم المقدسة "، المبينة في الحاشية السابقة، تؤيد ما ذهبنا إليه من حيث أنها تستخدم للدلالة على ما قام به سليمان في تلك المدن فعل reconstruitr في (ا مل، 9: 18)، وفعل Resfaurer في (2 أخ، 8: 4)، وهذان الفعلان إنما يؤديان معنى الترميم والتجديد وليس البناء والإنشاد.

(2) (تك، 14: 7).

(3) (حز، 47: 19، 48: 28).

(4) في شرحه لمدينة تدمر، يعين قاموس الكتاب المقدس مكان ورودها في (2 أخ، 8: 4)، ومن ثم يردها إلى (1 مل، 9: 18)، معلقا بأنها وردت في النص العبري بصيغة تامار في المتىْ وبصيغة تدمر في الهامش، أما " توراة أورشليم المقدسة " فإنها تورد Tamar في (1 مل، 9: 18) ولا تعلق على ذلك بينا توردها بصيغة Tadmor في (2 أخ، 8: 4)، مع التعليق التالي بحاشيتها (c): " وهذا القول يخالف ما جاء في (1 مل، 9: 18)، ولعل كاتب سفر الأخبار ظنها نفس مدينة تدمر، التي هي بالمير ".

وهو الأرجح لاسيما إذا علمنا أن الاعتقاد السائد هو أن هذا التبديل قد تم في حوالى 300 أو 200 ق.م أى بعد النبى حزقيال الذي لا يدع مجالا للشك أن " تامار " وهى غير تدمر وأن " تدمر " ليس بإمكانها أن تكون تامار، جريا على عادتهم في تزييف الحقائق وإدخال التشويش في ذهن القارئ بقصد تمجيد تاريخهم ورفع شأنهم، ومن هنا برزت أسطورة بناء الملك سليمان لمدينة " تدمر " البعيدة عن حدود مملكته التي لم تصل في يوم من الأيام إلى دمشق بشهادة التوراة نفسها [1] فكيف تجاوزتها إلى تلك المنطقة الصحراوية النائية [2].

وما تزال بقايا تدمر قائمة وسط الصحراء تجتذب السياح إليها وأبرز ما في تلك الآثار الباقية التي تشهد بعظمة المدينة في الزمن الغابر:

1- هيكل " الشمس " أو هيكل " بعل " الذي كان يعتبر إلها وطنيا في تدمر، وعبادته معروفة عند الساميين منذ أقدم العصور، والهيكل مربع الشكل طول ضلعه 740 قدما يحيط به سور يرتفع إلى سبعين قدما وكان يضم في الأصل ما يزيد على أربعمائة عمود أسطوانى منظومة في أروقة وتحمل تيجانا مزخرفة بنقوش يونانية، وما يزال هناك نحو من مائة أسطوانة أو يزيد قائمة في أماكنها.

2- الرواق الأعظم ويقع على مسافة مائتى متر من المعبد وكان يتألف في الأصل من شارع رئيسى في الوسط مع شارعين جانبيين يصل المدينة من طرفيها بطول قدره 3750 قدما وكان يضم نحوا من 750 أسطوانة ترتفع إلى حوالى 57 قدما، وما يزال هناك نحو من 150 أسطوانة قائمة في أماكنها.

3- مدافن المدينة وهى عربية الشكل وتتألف من أبراج مستطيلة يزيد عددها على مائة مدفن [3].

إن أقدم كتابة قرئت من تدمر حتى الآن هى تلك التي وجدت منقوشة على قبر مؤرخه بالتاريخ السلوقى الذي يقابله السنة السابعة قبل الميلاد كما قرئ على اثنين من أعمدة الرواق الأعظم اسم أذينة وزينوبيا وبجانبهما تاريخ سلوقى يقابله سنة 271 للميلاد وهو نفس التاريخ الذي سقطت فيه دولة التدمريين. كما عثر على كتابة يرجع تاريخها إلى سنة 137 م وهى كتابة مطولة تدخل في مائة سطر وبجانبها الترجمة

(1) راجع (1 مل، 11: 23 - 25).
(2) الدكتور جواد على " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج3، ص 73 - 74.
(3) جرجى زيدان، " العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 89 - 91.

اليونانية [1].

ويحدثنا تاريخ الرومان عن استقلال تدمر الذاتى في القرن الثانى الميلادى، فيشير في هذا الصدد إلى أنه كان لها مجلس شيوخ من أهلها مختص بين القوانين وله رئيس وأمين، كما كان لها سلطة تنفيذية بيد شيخين يعاونهما مجلس يتألف من عشرة أعضاء، وسلطة قضائية بيد وكلاء وموظفين معيين [2].

وقد برزت في حياة تدمر السياسية أسرة عربية حكمت فيها في القرن الثالث الميلادى اشتهر من رجالها أذينة بن حيران بن وهب اللات بن نصر الذي سعى إلى خلع نير الروم فاكتشف الروم عزمه وقتلوه في أواسط القرن الثالث الميلادى، ثم خلفه في الحكم ابنه وكان يسمى أذينة أيضا انتصر للرومان في حربهم مع الفرس وأبلى فيها بلاءا حسنا فاسترجع البلاد التي كان الفرس قد استولوا عليها من الجزيرة وأخضع نصيبين وحاصر المدائن مرتين حتى أصبح سيد الشرق الرومانى ولقب بملك الملوك، ففرض سلطته على سورية وسائر آسيا الرومانية، وفى سنة 264م تسمى حاكما عاما عليها. ومع أنه كان في الظاهر تحت سيطرة الروم إلا أن رجاله كانوا يعدونه صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية من أرمينيا إلى جزيرة العرب.

وقد اشتهرت امرأته المسماة زينوبيا التي كانت تنوب عن زوجها في الحكم كلما خرج لحرب أو غاب عن تدمر وكانت تقوم بهذه المهمة بكل جدارة حتى نالت من إمبراطور الرومان أكبر ألقاب الشرف عندهم. وزينوبيا هذه تدمرية عربية الأصل كانت تحسن الأرامية والقبطية، وبعض اللاتينية واليونانية ولها اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب، وكانت تتميز بالشجاعة والدهاء والهيبة فكانت تجالس قوادها وكبار رجالها وتباحثهم في شئون الدولة وتقابل الوفود الأجنبية وكانت تمتطى جوادها مرتدية لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر.

ولما مات زوجها أذينة سنة 267م خلف ابنها الأصغر وهب اللات وباعتبارها زينوبيا الوصية عليه فقد أصبحت صاحبة الرأى والنفوذ الأكبر، وفى سنة 271م أعلنت زنوبيا استقلال تدمر عن الرومان وتولت قيادة الجيش وتقويته بتطعيمه برجال أشداء يعول عليهم في المعارك حتى تمكنت من فرض سلطانها

(1) " المرجع السابق " ص 92.
(2) د. سيد نوفل " زنوبيا ملكة تدمر "، الهلال، أغسطس 1973، ص 3.

على مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى على أنقرا الأمر الذي أثار غضب البيزنطيين فجاء أورليان بجيوشه الجرارة وهدفه إخضاع تدمر لنفوذه، وقد التقت جنود زنوبيا بجنود أورليان في أنطاكية وحمص فكان الفوز في المعركة على جانب أورليان مما اضطر زينوبيا إلى التراجع مغلوبة فتمكن أورليان أخيرا من ضرب الحصار حول تدمر وانتهى باستسلام التدمريين إلى الروم، فلم تجد زنوبيا أمامها غير الفرار إلى الفرس إلا أن الروم تعقبوا آثارها حتى قبضوا عليها، كان ذلك سنة 273م.

التصوير رقم (51)

" الزباء أو زينوبيا زباى " الملكة الجليلة التقية ملكة تدمر (266 – 273 م)

(على طاس من الذهب الخالص – المتحف الوطنى بدمشق)

ثم تحرك التدمريون بعد قليل ينشدون التحرر من حكم الرومان ولكنهم باؤوا بالفشل فأذلهم أورليان وهدم أسوار مدينتهم وقتل معظم سكانها، وبهذا المصير انتهت حياة الدولة التدمرية العربية كما انتهى إليه مصير دولة الأنباط على يد الرومان أيضا من قبل.

ج ـ دول الغساسنة في سورية:

لقد أجمع الإخباريون والنسابون العرب على عزو سبب هجرة القبائل العربية من جنوب الجزيرة في الأزمنة المتأخرة إلى أنحاء متفرقة من جزيرة العرب إلى سيل العرم الذي سبب تخريبات في سد مأرب في اليمن [1]. ولما كان

(1) انظر " ما يلى عن سد مأرب في الفصل الثانى ".

السد المذكور قد تعرض إلى عدة تصدعات أعقبتها ترميمات فقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هجرة هذه القبائل وعدوا التصدع انهيارا مما وسع مجال الاختلاف في تعيين تاريخ هذه الهجرات. ومما لا شك فيه أن هجرات هذه القبائل المتأخرة كانت تدريجية وعلى موجات متواصلة، لذلك نستطيع أن نحدد بدايتها بحوالى أواخر الألف الأولى قبل الميلاد، فكان منها هجرة الغساسنة إلى سورية والمناذرة إلى العراق [1]. أما الغساسنة فيزعم المؤرخون العرب أنهم من القبائل العربية، أصلها من الأزد رحلت من اليمن إلى تهامة في مكان عين ماء يقال له " غسان " فنسبوا إليه، وبعد أن أقاموا حينا هناك نزلوا مشارف الشام وتغلبوا على قبائل الضجاعمة التي كانت تقيم فيها وأنشؤوا لأنفسهم دولة تحت رعاية الروم عرفت بدولة الغساسنة، فتحضروا بمرور الزمن واعتنقوا النصرانية دين البيزنطيين واتخذوا لهم عاصمة مدينة بصرى في حوران وهى التي تعرف أنقاضها الآن " بأسكى شام " وفيها كان دير بحيراء الشهير، ولما كان الغساسنة في سورية خاضعين لسلطة البيزنطيين والفرس على أشدها فقد دارت عدة حروب بين الغساسنة والمناذرة كما اضطر كل من الطرفين أن يشارك في الحرب مع الجهة التي يخضع لها. وقد اتخذ الغساسنة الأرامية لغة لهم من غير أن يهجروا لسانهم العربى.

وأقدم ما لدينا من معلومات عن ملوك غسان مستقاة من كتاب حمزة الأصفهانى ففى زعمه أن ملوك غسان 32 ملكا حكموا نحو ستمائة سنة، أى من أوائل القرن الأول للميلاد إلى ظهور الإسلام، كان أولهم جفنة بن عمرو مزيقيا ومنه سمى الغساسنة بآل جفنة وقيل إنما سمى مزيقيا لأن الأزد تمزقت على عهدهم عند هربهم من سيل العرم، وقد امتد نفوذ الغساسنة ليشمل سلطانهم حوران والبلقاء وسائر مشارف الشام وتدمر وسائر عرب سورية وفلسطين ولبنان، وقد أنشؤوا المدن والقرى وبنوا القناطر وأصلحوا الصهاريج ومنها صهاريج الرصافة (رصافة الشام)، ومما نسب إليهم من القصور صرح الغدير والقصر الأبيض والقلعة الزرقاء وقصر المشتى وغيرها من القصور وكثير من الأديرة [2].

(1) انظر " ما يلى عن دولة المناذرة ".

(2) انظر: الدكتور جواد على " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج4، ص 118 - 160، الدكتور صالح أحمد العلى، " محاضرات.. "، ص 56 - 63، الدكاترة حتى وجرجى

د ـ مملكة المناذرة في العراق:

ومن القائل المتأخرة التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت أطراف الفرات الغربية، التنوخيون واللخميون، فقد استقر التنوخيون على حدود العراق الغربية منذ العهد الفرثى (126 ق.م - 227 ب. م) وأسسوا لهم كيانا ذاتيا في أواخر هذا العهد حيث استغلوا ضعف الدولة الفرثية في أواخر حكمهم فتمتعوا باستقلال ذاتى واستغلوا نفوذهم لحماية القوافل المارة بوادى الفرات لقاء أجور وأنشؤوا لهم علاقات وثيقة مع تدمر.

ويذكر المؤرخون العرب من ملوكهم مالك بن فهم وعمرو بن فهم وجذيمة الأبرش، وتنوخ فرع كبير من قضاعة، ذكر النسابون أن تنوخا مزيج من قضاعة والأزد [1]، ويروى بعض المؤرخين العرب أن هذه القبائل نزحت من مواطنها بعد انهيار سد مأرب في اليمن، ولعل المقصود هنا أحد تصدعات السد التي رممت في أزمان مختلفة لأن الدلائل تشير على أن السد بقى قائما إلى منتصف القرن السادس الميلادى [2]، ثم خلف التنوخيين اللخميون في العهد الساسانى (224 - 637 ب.م) فأسسوا إمارة بزعامة عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة الأبرش آخر الملوك التنوخيين (268 - 288 ب.م)، لعبت دورا سياسيا مهما إذ استغل ملوكها موقع منطقتهم الجغرافى الذي يؤلف حاجزا بين الدولتين العظيمتين المتنافستين على السلطة (دولة القياصرة في الغرب ودولة الأكاسرة في الشرق) في توسيع نفوذهم، فحكم فيهم عدد من الملوك الذين اشتهروا في تلك الحقبة من تاريخ الشرق الأدنى وصاروا يعرفون بالمناذرة نسبة إلى أهم ملوكهم الذين كانوا يتسمون بالمنذر الأول والثانى والثالث... الخ، وقد ذكر المؤرخون العرب من ملوك اللخميين المناذرة عشرين ملكا امتد حكمهم أكثر من 350 سنة بين سنة 268 و 631 م.

وقد اتخذ اللخميون والمناذرة الحيرة عاصمة لهم وأسسوا حضارة عربية خاصة بهم فيها، وتقع الحيرة على ثلاثة أميال جنوبى الكوفة في منطقة سهلة قريبة من الصحراء ويجرى بالقرب منها نهر الفرات الذي كان يتفرع منه عدة

وجبـــور، " تاريخ العرب " ص 102 - 107.

(1) زيدان، " العرب قبل الإسلام "، ص 173.

(2) انظر ما يلى عن سد مأرب في الفصل الثانى.

فروع منها الفرع الذي كان يمر بالحيرة وكان يعرف بنهر الحيرة. وكانت هذه الفروع والترع تصب في بحر النجف الذي كانت تصل إليه السفن البحرية على ما ذكره المسعودى. والأرجح أن اسم الحيرة مشتق من الكلمة الأرامية (حرتا) ومعناها المعسكر والمقام، وكانت للحيرة أهمية خاصة بسبب موقعها على أطراف العراق واتصالها بعشائر الجزيرة العربية وأراضيها فضلا عن موقعها على طريق القوافل التي تنقل البضائع التجارية كانت في الوقت نفسه تحدها من الداخل بحيرة النجف وقد جفت الآن. ولقد لعبت الحيرة دورا مهما في تاريخ الإسلام بخاصة موقفها الودى من الفتح الإسلامى [1].

وكان أغلب سكان الحيرة من العرب البدو، وكانت هناك جاليات من الفرس النبط، وكان النبط يمتهنون الزراعة والفلاحة، كما كانت توجد جالية يهودية في الحيرة تمثل أولئك اليهود الذين استقروا فيها بعد السبى البابلى أن يهود الحيرة كتبوا التلمود البابلى فيها [2]، في حين أن التلمود البابلى وضع في بابل كما هو معلوم.

كانت الحيرة مركزا هاما من مراكز انتشار الديانة المسيحية إذ يدعى الطبرى أن امرئ القيس الأول (288 - 328 م) كان أول من تنصر من ملوك الحيرة، وقد استقر نفوذ المسيحية بشكل واضح في عهد المنذر بن ماء السماء (513 - 562 م) الذي تزوج هند وهى نصرانية، ثم اعتنق النعمان بن المنذر (583 - 506م) المسيحية وترك عبادة الأصنام وأذن للنصارى بممارسة شعائرهم الدينية بحرية، والدليل على انتشار المسيحية في المنطقة كثرة الأديرة التي أنشئت على أطراف الحيرة إذ أورد الإخباريون ذكر أكثر من عشرين ديرا فيها وقد درس رجال الدين فيها وترجموا العديد من الكتب الفلسفية والدينية إلى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم، وقد تفوق مذهب النساطرة على مذهب اليعاقبة فانتشر مذهبهم في منطقة الحيرة وكانت لهم أسقفية في الحيرة تابعة

(1) انظر المراجع التالية عن الحيرة:
يوسف رزق الله غنيمة، " الحيرة - المدينة والمملكة العربية "، بغداد، 1936.
الدكتور صالح أحمد العلى، " منطقة الحيرة - دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الأدبية "، مجلة كلية الآداب، نيسان، 1962، ص 17 - 44. " دائرة المعارف الإسلامية "، ج8، ص 161 - 162.

(2) الدكتور صالح أحمد العلى، " محاضرات في تاريخ العرب " ص 75.

لبطريركية طيسفون [1].

وقد اشتهر من بين أبنية المناذرة قصر الخورنق المشهور الذي بناه الأمير اللخمى النعمان لمولاه الساسانى بعد عام 418 م، وقد أشاد بذكره شعراء العرب الجاهليون في كثير من أشعارهم وعدوه هو وحصن السدير المجاور له من عجائب الدنيا الثلاثين، واشتهر الحورنق أيضا لأنه مضرب المثل السائر " جزاء سنمار " وهو المهندس الرومى الذي شيده للنعمان وأتمه له، وقد وسع الخلفاء العباسيون الأوائل هذا القصر وانتفعوا به، وقد كان خربا في القرن الخامس عشر الميلادى [2].

هـ ـ مملكة كندة:

تنسب هذه الدولة العربية التي يرجع تأسيسها إلى القرن الخامس الميلادى إلى قبيلة كندة، وهى قبيلة قحطانية في عرف النسابين، وقد عرفت بـ " كندة الملوك ". وكانت منازل هذه القبيلة في الأصل في جنوب الجزيرة العربية حددت إقامتها في المنطقة الواقعة إلى غربى حضرموت، إذ أطلق الهمدانى عليها " بلد كندة من أرض حضرموت " ويرى الإخباريون أن الكنديين نزحوا إلى أواسط الجزيرة حيث أسسوا دولة عربية فرضت حكمها في أوج عظمتها على القبائل الساكنة في الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين، كما امتد نفوذها على قبائل بعض أجزاء اليمامة، بل امتد اتساعها حتى شمل دولة المناذرة في الحيرة وتبوأ أحد ملوكها عرش تلك الدولة، ويرجح الباحثون أن أول هجرة الكنديين إلى منطقة نجد كان في حوالى منتصف القرن الثالث الميلادى، أما الموضع الذي أسست فيه مملكة كندة فقد كان في الطرف الغربى المرتفع من هضبة نجد على حدود الحجاز الشرقية في منطقة " ضربة " وهى منطقة تكثر فيه الأودية والمياه والواحات الخصبة كما تكثر فيها مناجم الذهب [3].

وقد اشتهر بين ملوك كندة الملك حجر بن عمرو ويلقب بآكل المرار، وقد حدد الباحثون زمن حكمه في حوالى أواخر القرن الخامس الميلادى، قام هذا

(1) راجع: الدكتور صالح أحمد العلى، " محاضرات في تاريخ العرب "، ص 64 - 83، الدكتور جواد على، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج4، ص 5 - 117، جرجى زيدان، " العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 197 - 214.

(2) " دائرة المعارف الإسلامية "، ج9، ص 35 - 36.

(3) انظر مادة (ضربة) في معجم ياقوت ومعجم ما استعجم للبكرى.

الملك بعدة حملات ضد القبائل العربية في مختلف أنحاء الجزيرة العربية محاولا توحيدها تحت إمرته وسلطته، وقد أجمع الباحثون أن الملك حجر كان أول ملوك كندة ومؤسسها، مع أن ياقوت يذكر في معجمه عدة ملوك سبقوا حجرا بحوالى قرن أو نصف القرن من الزمن كما اقتصر اليعقوبى على ذكر أسماء عدد من الملوك الأول مع ذكر سنى حكمهم من غير الإشارة إلى تاريخ حكمهم.

وقد أعقب حجرا ابنه " عمرو " الذي سمى بالمقصور، وقد حافظ هذا الملك على علاقته الطيبة مع الحميريين في اليمن، كما كان مرتبطا مع المناذرة بأواصر القربى، إلا أن علاقته مع الغساسنة كانت على خلاف ذلك، فقد اشتبك مع الحارث بن أبى شمر في حروب قتل فيها، ثم تولى الحكم الحارث بن عمرو، وهو أقوى ملوك كندة وأكثرهم طموحا، فاستغل تدهور العلاقات بين المناذرة والساسانيين واستولى على مملكة المناذرة، ونصب نفسه ملكا عليها بتأييد من قباذ ملك الفرس الذي أبعد المنذر ابن ماء السماء عن الحكم في الحيرة. وقباذ هذا هو قباذ الأول الذي حكم ثلاثا وأربعين سنة فيما بين سنة 488 و 531 ميلادى، وكان للحارث أربعة أولاد كان قد عينهم في إبان حكمه ملوكا على قبائل العرب الخاضعة لحكمه واحتفظ لنفسه بحكم كندة، وقد عين حجرا أكبر أولاده على أسد وكنانة وغطفان وهم يقطنون في الشمال الغربى من نجد عند وادى الرمة بين جبل شمر وخيبر، وحجر هذا هو والد الشاعر الجاهلى المعروف امرئ القيس.

ولم يدم حكم الحارث طويلا في الحيرة، فبعد وفاة قباذ واعتلاء كسرى أنوشروان عرش فارس أعيد المنذر بن ماء السماء إلى الحكم في الحيرة ففر الحارث وأعوانه، وقد اختلفت الروايات حول مصير الحارث فبعضهم يدعى أنه قتل على يد المنذر بن ماء السماء في حين أن البعض الآخر ينفى ذلك ويذهب إلى أنه مات موتا طبيعيا. وبموت الحارث انحلت وحدة الحكم في دولة كندة ولم يبق من ملوكها غير معدى كرب بن الحارث على قيس عيلان وأمراء صغار ذوى سيادة على بعض القبائل حتى ظهر الإسلام فذهبت جميعها، أما أخوة معدى كرب الثلاثة ومن ضمنهم حجر فقد قتلوا جميعهم في المعارك التي دارت رحاها بعد وفاة أبيهم الحارث.

وكان الكنديون يعبدون الأصنام وقد انتشرت بينهم المسيحية أكثر من انتشار اليهودية وذلك بتأثير الغساسنة والمناذرة والأحباش حتى كان أول من تنصر من ملوك كندة هو معدى كرب الملقب بذى التاج الأوضح.

وقد خلفت قبيلة كندة عددا من الشعراء والأدباء إذ كانت موئل الشعراء العرب في الجاهلية فنبغ فيهم عدد من الشعراء وفى مقدمتهم الشاعر المشهور امرؤ القيس بن الملك حجر الذي كان له الفضل في حفظ أخبار هذه الأسرة من كندة، ومما يذكر في هذا الصدد أن الفيلسوف الشهير يعقوب بن إسحاق الكندى يرجع نسبه إلى هذه القبيلة [1].

و- إمارة الحضر العربية:

إن اسم إمارة الحضر العربية مشتق من اسم مدينة الحضر الشهيرة، عاصمة الإمارة، الواقعة اليوم في البرية قرب وادي الثرثار على الجانب الغربي منه على بعد 140 كيلو مترا من جنوب غربي الموصل [2]، يحدها نهر دجلة من الشرق والفرات من الغرب، وجبال سنجار من الشمال ومشارف المداين من الجنوب، إلا أن نفوذها امتد في الشمال إلى ما وراء سنجار فوصل إلى الخابرو ونصيبين، وكانت تؤلف هذه الإمارة إحدى الدويلات العديدة التي كانت تابعة للدولة الفرثية الفارسية(250 ق.م - 226 ب.م) كانت بلاد مملكة الحضر تعرف منذ القديم باسم (عربايا) أي بلاد العرب حيث ورد ذكرها من بيت الأقاليم التابعة لإمبراطورية الملك الأحمى دارا الكبير (522 - 486 ق.م) مما يدل على قدم حكم العرب في منطقة الحضر.

وقد بلغت إمارة الحضر العربية أوج مجدها وتوسع نفوذها في القرون الثلاثة الأولى للميلاد وبخاصة في دور ملوكها الذي يبدأ في منتصف القرن الثاني للميلاد وينتهي بسقوط الحضر في عام 240 أو 241 للميلاد بيد الملك الساساني شابور الأول بعد أن حاصرها مدة من الزمن، وفي دور الملوكية هذا تمتعت مملكة الحضر بقسط أوفر من الاستقلال حتى توسع نفوذها إلى ما بعد الخابور شمالاً.

وكان أول ملك من ملوك الحضر يدعى " ولجش الملك " (155 - 165م)

(1) الدكتور جواد على، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج3، ص 215 - 273، الدكتور فيليب حتى ورفاقه، " المطول في تاريخ العرب "، ج1، ص 114 - 116، جرجى زيدان، " العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 214 - 218، الدكتور صالح أحمد العلى، " محاضرات في تاريخ العرب "، ص 155 - 165.

(2) انظر مدينة الحضر في معجم الأعلام والأقوام والبلدان (الملح الرابع).

ورد اسمه على تمثال من تماثيل الحضر، وقد اتخذ له لقب " ملك العرب " أي ملك بادية شمالي العراق، وتذكر المصادر الرومانية اسم " برسميا " ملكًا على الحضر وهو محرف عن اسم " عبد سميا " الذي ورد ذكره في الكتابات المكتشفة في الحضر ملكًا حاكمًا في الحضر في عام 192م، وكان الملك سنطروق الثاني الذي اعتلى العرش بعد أبيه " عبد سميا " من أشهر ملوك الحضر دام حكمه حوالي أربعين سنة (200 - 240م) وامتدت حدود مملكته بعيدًا إلى الخابور وعبر الفرات مما دفعه إلى أن يلقب نفسه " المظفر ملك البلاد العربية ". وقد استغل سنطروق النزاع الذي كان محتدمًا بين أمراء الفرثيين على عرش الدولية الفرثية لزيادة نفوذه وتمتعه بالاستقلال الكامل في تصرفاته واتصالاته.

وبعد انقراض مملكة الفرثيين وقيام السلالة الساسانية تفيد المصادر العربية أن قبيلة من قبائل بني قضاعة أغاروا على أرض جزيرة ما بين النهرين وكان لها ملك يقال له الضيزن بن جهلمة، وكان فيما زعموا ملك الجزيرة كلها إلى الشام، ففتح مدينة الحضر واستولى عليها من حاكمها الجرمقاني المدعو " الساطرون " (سنطروق في السريانية) فأقام فيها مدة ملكًا وأغار على بلاد الفرس والسواد بعد أن انضم إلى الرومان الذين استولوا على بيديا، فهاجم الفرس وتغلب عليهم في منطقة شهرزور كما تذكر المصادر العربية، وكان أن تمكن الملك الضيزن فحاصرها لسنة كاملة من 12 نيسان 240 إلى 1 نيسان من عام 241م، على ما تذكر وثيقة اكتشفت حديثًا في مصر، واضطرت أخيرًا إلى الاستسلام بعد أن فقدت قدرتها على الصمود فدخلها منتصرًا، وتدل التنقيبات أن أبنيتها تركت قائمة وتماثيلها سالمة في أماكنها من غير أن يصيبها تخريب أو تشويه متعمد.

إن سكان الحضر كانوا عربًا ولكنهم تأثروا بالمحيط الذي عاشوا فيه فأخذوا بالثقافة الأرامية واللغة الأرامية التي كانت لغة التدوين والمراسلة عند معظم شعوب الشرق على اختلاف ألسنتهم وتباين لغاتهم، إذ كان للأراميين ثقافة عالية وحضارة راقية ازدهرت ونمت في خلال اشتغالهم بالتجارة واحتكاكهم بأقوام أخرى وقد انتشرت مع التجارة الأرامية اللغة الأرامية انتشارًا واسعًا، ولهجة الحضر الأرامية فرع من المجموعة الشرقية للهجمات الأرامية التي تشمل أيضًا اللهجة السريانية الرهاوية ولغة التلمود البابلي واللهجة المانديه، والأراميون والعرب أشقاء خرجوا من بطن الجزيرة العربية فتراثهم ولغتهم ومعتقدهم مستمد

من أصول واحدة.

أما ديانة أهل الحضر فهي ديانة القبائل العربية التي قوامها الظواهر الطبيعية مع الميل إلى التبسيط والتوحيد في المعتقد والعبادة، وقد كان للديانة الحضرية طابع خاص يميزها عن ديانات الشعوب القديمة كالسومرية والبابلية والآشورية والإغريقية والرومانية والفارسية التي نمت خارج العراق مع أنها اقتبست منها الشيء غير القليل بسلسلة من عمليات تلقائية اشترك بها كل من الأراميين والأنباط والعرب بعقلية واحدة منشؤها الجزيرة العربية. فكانت الشمس من أشهر الآلهة لدى الشعوب السامية عمومًا، وقد خص الحضريون الشمس بالأولية من عبادتهم وهي عندهم مذكر باسم " سمس " أو " شمسا " ويعتبرونه كبير الآلهة، الإله العظيم باعث الحياة وخالق الكائنات، ففي الحضر المعبد الكبير مخصص لعبادة الإله " شمس "، كبير الآلهة، يقابل " زيوس " لدى الإغريق و " جوبيتر " لدى الرومان و " اهورا مرزا " عند الفرس. " فكان هذا المعبد مركز النشاط الديني والاجتماعي ليس للحضريين وحدهم بل لجميع سكان جزيرة ما بين النهرين يحج إليه الناس من مسافات بعيدة ويقدمون فيه نذورهم ويدفنون بجواره موتاهم، وفي صحنه الواسع كانت تعقد الاجتماعات وتقام الولائم والاحتفالات والأعياد ". وقد جاءت عبادة " مدينة شمس " على المسكوكات الحضرية توثيقًا للصلية بين الحضر وبين القبائل العربية المتجولة في بادية جزيرة ما بين النهرين أو الساكنة في أريافها والتي كان معبودها الأكبر " شمس ".

ففي الفقرة السامية لهذا الإله " عبادة الساميين عمومًا:

" يا شمس أنت ملك السماء والأرض، وسيد الكائنات العليا والسفلى، القاضي المستقيم الذي يدبر شئون البشرية، السليل الأمجد الابن الأعظم والأنبل، نور الأرض، صانع كل ما في السماء وما في الأرض ".

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن فكرة التوحيد التي تنطوي على وجود الخالق لكل ما في السماء وما في الأرض كانت معروفة عند الساميين العرب منذ القديم وكان الميل إلى تقبلها في صلب معتقدهم وعبادتهم، وأن فكرة التوحيد عن طريق عبادة الشمس وظهورها على القرص المشع على العالم أجمع التي نادى بها أخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد مأخوذة من الساميين العرب.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن الحضريين العرب كانوا مثل المصريين

يصورون الإله الشمس على هيئة الصقر مما يؤكد أن المصريين أخذوا هذا الرمز لإله الشمس من الساميين العرب، فقد كان " للنسر منزلة سامية في الحضر فهو يمثل إله الشمس ويرمز إلى سيادته وهيمنته، والنسر يحلق عاليًا في كبد السماء كما تفعل الشمس في مدارها فيراقب من علو ما يحدث على سطح الأرض، وقد عنى الحضريون كثيرًا بنحت تماثيله وبتزيينها بقلائد وميداليات للتيمن والترجي ، ووضعوا تماثيل " بوابات المدينة وفي مداخل المعبد وداخلها ".

ومن ألهة الحضريين المشهورة كثيرًا الإله " نرجول " أو " نرجل " فقد اقتبسوا عبادته من الآشوريين الذين كان يعرف لديهم باسم نرجال وهو عندهم إله الحرب وحارس العالم تحت الأرض حيث مصير الأرواح، ولكن الحضريين صوروه في منحوتاتهم على غير الشكل الذي صوره له الآشوريون فصوروه بالشكل الذي كان يصور في هرقل عند اليونان، وكان اسم الآلهة اللات يتردد في الكتابات الحضرية أيضًا، إذ وجدت بضعة تماثيل ومنحوتات تمثلها بالهيئة التي كانت تصور فيها الآلهة أثينا عند اليونان [1].

ز- مملكة الرها العربية:

وكانت في القسم الشمالي من منطقة ما بين النهرين في المنطقة العليا من الجزيرة مملكة عربية تعرف باسم مملكة (الرها وكانت تسمى عاصمتها بالرها أيضًا، دامت هذه المملكة ثلاثة قرون ونصف بين سنة 132 قبل الميلاد وسنة 216 بعد الميلاد حين أغار عليها " كراكلا " الروماني فقضى عليها وضمها إلى روما.

كانت بلدة الرها قبل ذلك بيد السلوقيين مصروها سنة 304 ق.م، فسموها " أيدينا " على اسم إحدى مدن تراقية ودعاها اليونانيون " كاليرهو " أي الحسنة المياه، ويراد بكاليرهو الموضع المعروف اليوم باسم بركة إبراهيم (نبع خليل الرحمان)، وصارت تعرف عند الأراميين باورهاي وعربت بالرها واسمها

(1) انظر: سليمان صايغ، " تاريخ الموصل "، ج1، ص 30؛ الدكتور جواد علي، " تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج3، ص 459؛ " المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام "، ج2، ص 609 - 619؛ جرجي زيدان، " العرب قبل الإسلام "، ج1، ص 175؛ فؤاد سفر، " الحضر مدينة الشمس ""، بغداد 1972.

المعـــــــــــــــــروف اليـــــــــــــــــــوم " أورفة "، والرها من المدن العريقة حازت في بعض الأدوار التاريخية على أهمية عظيمة ولاسيما في مدة مملكتها الصغيرة، وقد كان للرها شأن خطير في ازدهار وانتشار العرب السرياني بما " ذلك النصرانية وتاريخ النسطورية في أواسط القرن الرابع، وفي القرن الخامس للميلاد، فقد ورد في تاريخ يوسبيوس ما يشير إلى أن أحد ملوك الرها المدعو أبجر الخاسم (4 ق.م - 50 ب.م) لما سمع عن شهرة السيد المسيح كتب إليه طالبًا منه أن يأتي إلى الرها ليشفيه من مرض اعتراه، ومما قاله في رسالته له: لقد بلغني أن اليهود يضايقونك ويضمرون لك الشر فبلدي بلد صغير ولكنه بلد جميل وسني يسعنا كلينا، فأجابه السيد المسيح مباركًا إياه ووعده أنه بعد قيامته يرسل إليه أحد تلامذته، والتقليد الشائع أن مار أدى أحد التلامذة السبعين أتى بعد وفاة المسيح إلى الرها، وقد عثر على أثر من لباس الرأس يعود إلى الملك أبجر الثامن (164 - 166م) منقوشًا عليه الصليب مما يدل على أن اختلاف الملك أبجر الخامس كانوا يدينون بالنصرانية [1].

أسست مملكة الرها في سنة 132 قبل الميلاد على يد أريو الملك ومعنى أريو الأسد، فحكم أريو هذا خمس سنين إلى سنة 127 ق.م، ثم حكم بعده بين سنة 127 و 69 ق.م، ستة ملوك هم: عبدو بن مزعور، وايراداشت، وبكرو الأول، وبكرو الثاني، وأبجر الأول، ومعنو ، ثم الملك أبجر الأول ثانية، وحكم بعد ذلك 17 ملكًا بين سنة 68 ق.م ، وسنة 216 ب.م، وقد أدخل بلينيوس الرها في جملة المدة العربية وهي من ديار مضر، فاستدل بعض الباحثين من تسمى ملوك الرها بأسماء عربية ولاسيما الملوك الأولين منهم، ومن كلام بلينيوس ومن الوضع السياسي العام في جزيرة بين النهرين الذي سار فيه توغل القبائل العربية في هذه المنطقة على أن أهل الرها وحكامها كانوا من أصل عربي.

وقد ظهرت إمارات عربية أخرى في بلاد الرافدين على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين، منها إمارة سنجار، وسنجار موضع قديم كان معروفًا في أيام الآشوريين، ومما نعرف عن هذه الإمارة أن ملكها معتز انهزم سنة 115م أمام تراجان في أثناء فتحة للحضر وطيسفون، كما ظهرت إمارة أخرى في منطقة نهر العاصي عرفت بإمارة حمص، وقد حكمتها أسرة عربية وازدهرت في الزمن الذي ازدهرت فيه الإمارات العربية الأخرى، وقد استدل بعض الباحثين

(1) انظر ما ورد في معجم الأقدام والأعلام والبلدان - مادة أورفة.

من أسماء ملوك حمص على أصلهم العربي، وعرفت حمص أيضًا عند اليونان والرومان، وقد ظهرت في الجنوب إمارة ميشان وقيل لها بالعربية: " دست ميسان "، وباليونانية " خارك " كانت على الخليج العربي بأسفل أرض البصرة (1).

نستخلص مما تقدم: أن شبه جزيرة العرب كانت الينبوع الرئيسي الذي انبعثت منه الهجرات العربية من الجزيرة العربية لمدة أكثر من 2500 سنة بصورة متواصلة حتى ظهرت على المسرح موجة العرب الكبرى التي تدفقت من الجزيرة العربية أيضًا فشمل تيارها الهلال الخصيب بأجمعه وشمال أفريقيا والأندلس وامتدت الحضارة العربية إلى العالم الإسلامي.

* * *

(1) انظر: " تاريخ كلو واتور " تالية أدي شمير، 1912، 1: 169 - 174؛ الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب "، 2: 616 - 622؛ دائرة المعارف البريطانية، 1965،
7: 968 - مادة أيديا.